



ISSN 2347-2456



شعارنا الوحيد إلى الإسلام مر جديد

البعث الإسلامي

العدد العاشر - المجلد الثاني والسبعون
ربيع الثاني ١٤٤٨ هـ - أكتوبر ٢٠٢٦ م

- شهداء طوفان الأقصى يتكلمون (افتتاحية العدد)
- من هم أهل السنة والجماعة
- الإنسانية في حاجة إلى مجتمع مثالي
- الإيمان بالملائكة
- الإتيقان والإحسان وأثرهما في بناء المجتمع القوي
- مآخذ تفسير القرآن الكريم
- تصنيف العلوم عند ابن الأكفاني
- الاستشراق : أهدافه وآثاره
- من صور الالتفات في القرآن الكريم : دراسة بلاغية نحوية
- بردة كعب بن زهير ونسيجها
- السيرة النبوية وشبهات المستشرقين

تصدرها : مؤسسة الصحافة والنشر، ص.ب-٩٣، لكاناؤ- الهند

If undelivered please return to:

Al Baas El Islami, Majlis Sahafat wa Nashriyat , Nadwatul Ulama Campus, Tagore Marg,
Post box no.93 Lucknow-226007 Uttar Pradesh, India.

Email: info@albasulislami.com Website: www.albasulislami.com

المنح الأساسية الغالية للنبوة المحمدية

ويحلو لي هنا أن أذكر بشيء من الاختصار والإيجاز تلك المنح الأساسية الغالية التي كان لها دور كبير بارز في قيادة الجيل البشري ، وإصلاحه وإرشاده ، وازدهاره ، والتي ولدت عالماً مشرقاً جديداً رائعاً ، ما يشبه العالم الشاحب القديم في شيء ، وهي كما يلي :

- (١) عقيدة التوحيد النقية الواضحة .
 - (٢) مبدأ الوحدة الإنسانية ، والمساواة البشرية .
 - (٣) إعلان كرامة الإنسان ، وسموه .
 - (٤) رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها .
 - (٥) محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل ، والرجاء ، والثقة ، والاعتزاز في نفس الإنسان .
 - (٦) الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتناحرة والمعسكرات المتحاربة .
 - (٧) إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم ، وربط مصير أحدهما بالآخر ، وتقويم شأن العلم ، والحث عليه ، وتوجيهه إلى علم هادف نافع موصل إلى الله .
 - (٨) استخدام العقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينية ، والحث على النظر في الأنفس والآفاق .
 - (٩) حمل الأمة الإسلامية على قبول مسئولية الوصاية على العالم والحسبة على الأخلاق ، والاتجاهات ، وسلوك الأفراد والأمم ، وتحمل مسئولية القيام بالقسط ، والشهادة لله .
 - (١٠) الوحدة العقائدية الحضارية العالمية .
- (محاضرات في الفكر والدعوة للشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، ج ٣ ، ص ٤٥٩)

الاشتراكات السنوية

● في الهند

- | | |
|----------------------------|-------------|
| أربع مائة (بالبريد العادي) | ٤٠٠ / روبية |
| ثمان مائة (بالبريد المسجل) | ٨٠٠ / روبية |
| ثمان النسخة | ٤٠ / روبية |

● في العالم العربي ، وفي جميع دول العالم :

٧٥ / دولاراً بالبريد الجوي ، أما البريد العادي فهو ملغى بصفة رسمية

● المجلة غير ملتزمة بكل فكر ينشر فيها

عنوان المراسلات :

ترسل الاشتراكات بالشيك : باسم "البعث الإسلامي"

AL-BAAS, A/C NO. 10863759846

IFSC CODE: SBIN0000125, SWIFT CODE: SBININBB157

STATE BANK OF INDIA, LUCKNOW MAIN BRANCH (INDIA)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
شعارنا الوحيد إلى الإسلام من جديد



البعث الإسلامي

October 2026

مجلة إسلامية شهرية جامعة

أكتوبر ٢٠٢٦م

العدد العاشر - المجلد الثاني والسبعون - ربيع الثاني ١٤٤٨هـ - أكتوبر ٢٠٢٦م

ندوة العلماء

تأسست ندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وبين الدين الخالد الذي لا يتغير، والعلم الذي يتغير ويتطور ويتقدم، وبين طوائف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حياة نامية، وأن منهاج الدراسة خاضع الناموس التغير والتجدد، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر، وأن يزداد فيه، ويُحذف منه بحسب تطورات العصر، وحاجات المسلمين وأحوالهم. الإمام العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي (رحمه الله)

أنشأها

فقيه الدعوة الإسلامية
الأستاذ محمد الحسن رحمة الله تعالى
في عام: ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م

المشرف العام

الأستاذ السيد
بلال عبد الحى الحسيني الندوي

رئيس التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

مدير التحرير

محمد فرمان الندوي

مساعد التحرير المسئول عن المكتب

محمد عبد الله المخدمي الندوي

AL-BAAS-EL-ISLAMI

MAJLIS - E - SAHAFAT -WA- NASHRIYAT P. O. BOX: 93 Tagore Marg,
Lucknow. Pin:226007 U. P. (India) Mob: 9889336348, 8400476826

Email: albaas1955@gmail.com , info@albasulislami.com

محتويات العدد

٥	مدير التحرير	❖ أخي القارئ ! قمة مكة أهلاً بها ومرحباً
٦	سعيد الأعظمي الندوي	❖ الافتتاحية : شهداء طوفان الأقصى يتكلمون
١٠	العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى	❖ التوجيه الإسلامي : من هم أهل السنة والجماعة
١٥	العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله	الإنسانية في حاجة إلى مجتمع مثالي
٢١	الشيخ السيد بلال عبد الحي الحسيني الندوي	❖ الدعوة الإسلامية : الإيمان بالملائكة
٢٤	أ . د عبد المجيد أ أي	الإثقان والإحسان وأثرهما في بناء المجتمع القوي
٣٠	الشيخ المفتي محمد تقي العثماني	❖ دراسات وأبحاث : مآخذ تفسير القرآن الكريم
٤٠	د . مرزوق العمري	تصنيف العلوم عند ابن الأکفاني
٤٩	د / أبو سحبان روح القدس الندوي	الاستشراق : أهدافه وآثاره
٥٨	الأستاذ أيمن ياسين العمر	من صور الالتفات في القرآن الكريم : دراسة بلاغية نحوية
٦٥	الدكتور سيار أحمد نجار	مساهمة الشيخ محمد حنيف الندوي في العلوم الإسلامية
٧١	الدكتور حسن الأمراني	❖ في رياض الأدب والشعر : بردة كعب بن زهير ونسيجهما
٧٩	الشاعر عبد الله راغب	ربيع الخلود
٨١	محمد فرمان الندوي	❖ صور وأوضاع : السيرة النبوية وشبهات المستشرقين
٨٥	الأخ السيد عبد العلي الحسيني الندوي	❖ بالأقلام الواعدة : الإنسان والإيمان
٨٨	الأخ تهذيب عالم بن عبد الرزاق الندوي	أشهر الحماسات : دراسة مقارنة
٩٧	الأستاذ طلحة نعمت الندوي	إصدارات حديثة : ترجمة "سيرة النبي" إلى العربية : خدمة علمية جلييلة
١٠٠	قلم التحرير	❖ إلى رحمة الله تعالى : ١. الأستاذ الدكتور عدنان زرزور إلى رحمة الله تعالى
١٠١	" " "	٢. الزعيم المسلم عالم بدیع الأعظمي إلى رحمة الله تعالى
١٠١	" " "	٣. الشاعر أفتاب أثر التاندي في ذمة الله تعالى
١٠٢	" " "	٤. والدة الأخ العزيز أحمد ميان في ذمة الله تعالى

قمة مكة أهلاً بها ومرحباً

شهدت الدنيا قمةً استثنائيةً في الثامن من شهر أغسطس ٢٠٢٦م ، على أظھر بقاع الأرض مكة المكرمة ، وقد جمعت هذه القمة قادة الدول الثلاث المملكة العربية السعودية ، والجمهورية التركية ، وجمهورية باكستان الإسلامية ، فقد اتفقوا على هذا القرار المشترك أن أي هجوم مسلح على أي دولة منها يعد هجوماً على الجميع .

لقيت هذه القمة ترحاباً عظيماً ، وإشادةً فائقةً على شتى المستويات ، واعتبرتها الجهات السياسية والدينية محطةً استراتيجيةً لمواجهة تحديات متفاقمة وتهديدات متصاعدة ، حتى قال بعض المحللين الصحفيين : إنها ميلاد مرحلة جديدة من التعاون والدفاع المشترك ، تقوم على الحكمة ووحدة الصف وحماية الأمن والاستقرار ، وقد تفاعل الناس بعقد هذه القمة في مكة المكرمة ، فلم يكن هذا الاجتماع في قلب العالم كله إلا لبيان هذا الواقع أن الأمن الحقيقي لا ينطلق إلا من أرض السلام ، وقد زاد القمة شرفاً وعظمةً ومعنويةً أن هذا الاجتماع كان يوم الجمعة المبارك ، حيث أدى رؤساء الدول الثلاث صلاة الجمعة في المسجد الحرام ، وتضرعوا إلى الله تعالى أن يرسل رياح الأمن والأمان والسلامة والإسلام في أرجاء المعمورة ، فتهب فحات الهدوء والاستقرار في العالم ، وتتطرأ الأجواء بروائح الأخوة العالمية .

إن صياغة منظومة متماسكة للاستقرار والأمن والدفاع حاجة الزمان ونداء الوقت ، وقد جرّ فقدان المنظومة إلى الإنسانية ويلات وكوارث منذ أمد بعيد ، وقد قال الإمام السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله : إن سقوط الخلافة العثمانية أزمة الأزمان ، لا ندري إلى متى تتجرع الأمة الإسلامية مرارتها ولذعتها ، فلا شك أن هذه القمة خطوة موفقة وإنجاز كبير في تاريخ وحدة الدول الإسلامية ، وجديرة بالثمنين البالغ والثناء العاطر ، وهي نواة لتحالف عالمي بإذن الله تعالى ، فتتقوى بها الروابط الإيمانية ، وتتجسد الأخوة العالمية ، وتستحكم العلاقات الدولية ، وينال بها الباحثون عن الثقة والقوة بغيتهم .

فنرحب بهذه القمة التاريخية ترحيباً حاراً ، ونشيد بهذه المبادرة الحاسمة ، إشادةً قلبية ، وندعو الله تعالى أن يجعل لها الخير والسداد في المستقبل ، ويوسع نطاقها إلى الدول الأخرى ، وقد قال الشاعر محمد إقبال : فليتحّد المسلمون لصيانة الحرمين الشريفين من ساحل نهر النيل إلى أرض كاشغر ، ويقول شاعر آخر :

رص الصفوف عقيدة ، أوصى الإله بها نبيه
ويد الإله مع الجماعة والتفرق جاهلية

مدير تحرير المجلة

١٤٤٨/٣/٣هـ

شهداء طوفان الأقصى يتكلمون

بدأ طوفان الأقصى منذ فجر السابع من شهر أكتوبر ٢٠٢٣ م بهجوم عسكري ، وغارة واسعة النطاق أطلقتته كتائب القسام والفصائل الفلسطينية الأخرى ، وكان هذا الهجوم براً وبحراً وجواً من غزة العزة والصمود ، فأدت هذه العمليات إلى قتل ألف ومائتي إسرائيلي ، وأسروا مئات منهم . فأعلنت إسرائيل كرد فعل على هذا الهجوم عن حرب شعواء ، وقد استشهد حتى الآن أكثر من سبعين ألفاً من مواطني غزة وفلسطين رجالاً ونساءً وأطفالاً وشباباً ، وجرح مآت الآلاف منهم ، كما أسروا عدد لا بأس به من سكان غزة ، وقد دمرت المباني والمساكن والمشاة في ودور التعليم فتحوّلت إلى بلاقع لا يمكن عمارتها في وقت قريب إلا بإذن الله .

مر على طوفان الأقصى ثلاثة أعوام ، وما زال ولا يزال العدوان الإسرائيلي مستمراً في الاعتداء على غزة والضفة الغربية ، فإن الاحتلال لا يزال يستهدف سكان غزة ويقتلهم بين عشية وضحاها ، وقد خرق جميع القوانين الدولية ، حتى قالت محكمة العدل الدولية على دعوى جنوب إفريقيا : إن ما تمارس إسرائيل في غزة من عمليات هي إبادة جماعية ، وقد أقلق هذا القرار الاحتلال كثيراً ، وشكل له إحراجاً دولياً ، وكان هذا القرار بمثابة قبلة نووية للاحتلال ، ذلك لأن الاحتلال يعتبر نفسه فوق القانون وبدون عقاب ، فجاء قرار المحكمة الدولية ، وقلب الطاولة رأساً على عقب .

اعتبرت بعض الجهات المفرضة طوفان الأقصى انتحاراً ، وقتلاً للأنفس والأرواح ، لكن إذا درسنا الموضوع في ضوء الحقائق والأرقام أن طوفان الأقصى كان نتيجة لاعتداءات قاسية ، وتشريدات صارخة منذ ثمانين سنة ، وقد وقعت مذابح صهيونية ضد سكان فلسطين ، واعتقل في سجون إسرائيل حوالي خمسة آلاف شاب وامرأة وطفل ، وكلهم كانوا يعانون من التعذيب والتتكيل ، ثم كان هناك تسابق وتنافس في تطبيع العلاقات مع الحكومة الإسرائيلية .

فكانت الحاجة شديدة إلى أن يكون هناك تحذير وإنذار من هذه

الوقائع المخزية والأعمال المشينة ، فجاء طوفان الأقصى في أوانه وفي مكانه ، وجدّد للناس ذكريات القرون الأولى ، وظهرت روائع من الفداء والتضحية ما يندر نظيره في العصر الراهن ، وقد تقبل الله تعالى هذا الطوفان ، فانطلقت موجات الاحتجاجات الطلابية في الجامعات الأمريكية والأوروبية دعماً لطوفان الأقصى ، وتديداً بالحرب الإسرائيلية على غزة ، فالطلاب والطالبات خرجوا إلى الشوارع والطرقات وأبدوا عواطفهم وآراءهم نحو غزة وشهائدها ، وقد رفعوا لافتات ولوحات بأيديهم ، وحملوا أعلاماً ورايات مكتوبة عليها : غزة تتحرر ، وفلسطين تتحرر ، ومن النهر إلى البحر فلسطين تتحرر ، أوقفوا الحرب ، وانشروا السلام العادل والشامل . وقد أحرز طوفان الأقصى نجاحاً باهراً ، ونال تجاوباً عاطفياً من الناس : خاصتهم وعامتهم ، عربهم وعجمهم ، وسطر أسطورة وصموداً وملحمة بطولية ، هذا الذي أقض مضاجع الاحتلال ، وأرقّ نومه ، وكدر عيشه ، فشدد في إمطار وابل من القنابل الفتاكة على سكان غزة رجالاً ونساءً وشيوخاً وشباناً ، وأطفالاً وصبياناً ، وقد ظن الاحتلال أن عواطف حماس تخمد بين عشية وضحاها ، ويلوذ سكان غزة بالفرار ، ويتنازلون عن شرعية حقوقهم ، ولا يستقرون ولا يصمدون أمام الهجمات العدائية والغارات الجوية والبرية ، لكن استمرارية الطوفان إلى أمد طويل توكلأ على الله خيبت آمال الاحتلال ، فلم يدخل أرض غزة إلا وقد كانت له كفة حابل ، وقد رجعت كتائبه وجيوشه إلى الوراء ، مصابة بالانهزامية النفسية والفشل الذريع ، أمام العدد الهائل للجرحى والمصابين والشهداء في سبيل الله ، فالمسلمون لا يعبأون بالموت ، فإنهم قد باعوا أنفسهم وساءلوا الله تعالى بالجنة ، كما يظهر من كلماتهم : إنه جهاد نصر أو استشهاد .

اخضرت أرض فلسطين بدماء الشهداء والمجاهدين في سبيل الله وقد سُقيت ، ولا تزال تسقى بالدماء المهرقة منذ أكثر من ثمانين سنة ، وكل ذلك لحرمة المسجد الأقصى ، وصيافته وإنقاذه من الأيدي الآثمة والسيطرة النجسة ، ونحن على يقين بأن الله سيظهر هذه الأرض المقدسة من أوضاع الظلم والاعتداء ، ونجاسات الكبر والغطرسة بقوته القاهرة ، وتضحيات الطائفة المنصورة وأبطال الإسلام والمسلمين الذين لا يضرهم

من خذلهم .

رحم الله تعالى شيخ الانتفاضة أبا المقاومة الشيخ أحمد ياسين ،
إنه كان قعيداً أشل ، جالساً على الكرسي ، لكنه ألهم مشاعر
المسلمين بلسانه وقلمه وكيانه ، وأنشأ حركة المقاومة الإسلامية عام
١٩٨٧م ، ذلك لأنه كان يعتقد أن الاحتلال لا يفهم إلا منطق القوة ،
فكل ما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة ، واستشهد الشيخ أحمد ياسين في
غارة جوية راجعاً إلى منزله بعد صلاة الفجر ، لكنه شحن بطارية القلوب
بالإيمان والحنان ، والتضحية والفداء ، وأعد كوادراً جهادية وجنوداً
حماسية تمنوا الشهادة في سبيل الله واستقبلوا الموت بثغور باسمه ووجوه
ضاحكة .

وهناك قائمة طويلة لشهداء طوفان الأقصى ، لكن نذكر على
سبيل المثال الشهيد إسماعيل هنية ، وكان شخصيةً أسطوريةً ، اعتقل
وسجن ، وأخيراً قام بدور ريادي في تنشيط حركة حماس وإحداث طوفان
الأقصى ، وكان من جملته السائرة : لو خضعت كل الدنيا لن نعترف
بإسرائيل ، وكان يقول : نحن قوم نعشق الموت ، كما يعشق أعداؤنا
الحياة ، ونعشق الشهادة على ما مات عليه القادة .

أما البطل المغوار يحيى السنوار فإنه عاش سعيداً ومات شهيداً ،
وكان يتمنى الشهادة في سبيل الله عز وجل ، وكان في معترك الحياة
وأتون الجهاد ، يحارب ويناضل ويقاوم الاحتلال حتى الرمح الأخير من
حياته ، وقد رمى بعصاه عدسة الدرون رغم جروحه وقروحه ، فأصبح
عمله مضرب المثل وجري على لسان الناس : " رميته بعصا السنوار " ، وقد
اعتبر يحيى السنوار رمزاً للبطولة والإباء والجهاد والكفاح ، وقد قال عنه
الدكتور خليل الحية : " إنه مات موت الشرفاء الكرام ، موت الأبطال
الأحرار ، إنه مات ليحيى ، كما كان قبل موته يحيى ليموت " . وقد
ألف كتاباً باسم الشوك والقرنفل ، وهو قصة جهد وجهاد في سبيل الله
تعالى ، وكان يقول : إن أكبر هدية يمكن أن يقدمها العدو والاحتلال
لي هي أن يغتالني ، هي أن أمضي إلى الله شهيداً ، وأنا حقيقة أفضل أن
أستشهد بـ " إيف ١٧ " ، أو بالصواريخ من أن أموت بكورونا أو أموت
سكتة أو جلطة أو بحادث طريق " ، وقد حقق الله أمنيته ، وكتب له

الشهادة الحقيقية ، وحشره مع الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وكان في شهداء طوفان الأقصى إعلاميون ، وهم لا يُنسون أبد الدهر ، وقد كشفت التقارير الآتية من غزة أن الصحفيين والإعلاميين الذين استشهدوا جراء الاستهدافات الإسرائيلية يبلغ عددهم حوالي ٢٤٠ صحفياً ، وكان من بين هؤلاء الإعلاميين الصحافي أنس الشريف الذي بدأ عمله الصحافي منذ عام ٢٠١٤م ، وقد التحق بقناة الجزيرة قبل سنتين ، وكان يُعد تقارير موسعة عن المجازر والإبادة الجماعية ، وقد لقي تحديات سافرة وتهديدات خطيرة ، لكنه ظل مجازفاً بحياته حتى استشهد في طوفان الأقصى ، واستشهد معه الصحافي محمد قريقع وإبراهيم ظاهر ومحمد رياض نوفل .

وحق لي بهذه المناسبة أن أستعير لهذه الافتتاحية هذا العنوان : " شهداء طوفان الأقصى يتكلمون " نظراً إلى ما كتبه الإمام السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي حول حركة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، فعنون مقالاً له : شهداء بالاكوت يتكلمون ، وقد كتب صديقي الأعز الأستاذ السيد محمد الحسيني مقالاً لهذه المجلة ، ففنونه : شهداء الإخوان يتكلمون ، فجاء عنوان الافتتاحية : شهداء طوفان الأقصى يتكلمون ، فلا شك أن شهداء طوفان الأقصى كانوا نفوساً زكيةً أبيةً ، تظل زينة الدنيا وبركة الوجود ومفخرة الإسلام وشرف المسلمين ، وإن الرجولة والشهامة والصدق والأمانة والعفة والنزاهة ، والورع والتقوى ، والتمسك بالسنة ، واتباع الشرع ، والحمية الدينية ، والبطولة الإسلامية – على حد تعبير الإمام الندوي – ظلت ثابتة على أرض فلسطين ، ولا تزال تترك آثاراً إيجابية بناءة حتى يحرق الله المسجد الأقصى ، والأرض المقدسة من براثن الظالمين الغاشمين . قال الله تعالى في القرآن الكريم : (مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) [الأحزاب : ٢٣] .

والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

سعيد الأعظمي الندوي

١٤٤٨/٣/٧هـ

٢٠٢٦/٨/٢١م

من هم أهل السنة والجماعة

بقلم : العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى*

تعريب : محمد فرمان الندوي

(الحلقة الأخيرة)

الآن نقدم أمام القراء تطبيقاً عملياً للأصول الكلية المذكورة من قبل ، وذلك في القضايا الجزئية ، ما هي آراء قدماء أهل السنة والجماعة ومعتقداتهم في هذه القضايا في القرون التي شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالخيرية :

قضية القدر أو الجبر والقدر :

جرت نقاشات قبل كل شيء في المعتقدات حول هذا الأمر ، وهي قضية يعصب ردها وحلها بلسان الدين ، فضلاً عن لسان الفلسفة أيضاً ، فليست هذه القضية قضية الإسلام فحسب ، بل لا يخلو منها أي ديانة من ديانات العالم كله ، الواقع أن روح الدين يكمن في هذا اللغز المحير للعقول والألباب ، فالإجابة عنه نفياً أو إيجاباً أو ادعاءً غارة خطيرة على الأديان كلها ، وقد ورد في الحديث النبوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يتنازعون في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، حتى كأنما فقى في وجنتيه حب الرمان ، فقال : أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، وعزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه (سنن الترمذي ، ٢١٣٣) ، وكان قاسم بن محمد حفيد سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وعضواً بارزاً لدار الفقه في المدينة المنورة ، مرة رأى أن رجلاً يتنازعون في القدر ، فقال : كفوا عما كلف الله عنه (طبقات ابن سعد ، ذكر قاسم بن محمد ، ص : ١٣٩ ، طبعة لايدن) .

كلام الله مخلوق أم غير مخلوق :

نشأت هذه القضية في خلافة المأمون من العهد العباسي أن كلام

* كبير علماء الهند ، وشيخ الندويين .

الله قديم أو حادث ؟ مخلوق أو غير مخلوق ؟ وبما أن الكلام صفة الله ، فلا بد أن تكون صفة الله قديمة وغير مخلوقة مثل ذاته ؟ فيقول المحدثون وأهل الظواهر أن كلام الله مخلوق ، وقالت المعتزلة : إن كلام الله غير ذاته ، وكل ما عدا الذات الإلهية حادث ومخلوق ، والقرآن يقول : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص : ٢٨٨] ، وورد في القرآن الكريم ذكر فرعون وهامان ، فإذا كان كلام الله قديما وغير مخلوق فهل هؤلاء أيضا قديم وغير مخلوق .

وقال الحنابلة والأشاعرة والماتريدية في العصر الذي نشأت فيه هذه القضية : إن كبار علماء أهل السنة قد أبدوا موقفهم أن كلام الله تعالى قديم ، وغير مخلوق ، أما الإمام أحمد بن حنبل الذي قام سدا منيعا ضد الأمر الملكي نحو هذه القضية فقد أبدى موقفه هذا علنا وجهارا ، دع عنك - أيها القارئ - العصبية والخلاف العدواني ، وتأمل بكل هدوء في القضية نفسها أن الاعتقاد عن القرآن الكريم أنه قديم وحادث ، أو مخلوق وغير مخلوق يأتي ضمن معتقدات محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الكرام رضي الله عنهم ؟ فمن رسالة الإسلام الأساسية أن القرآن كلام الله ، ونحن نثق بأنه منزل من الله تعالى .

الواقع أن علماء أهل السنة قد أفتوا بأن من يقول : القرآن الكريم كلام إلهي أو مخلوق فقد كفر ، ليس معنى ذلك أن نقول عنه : غير مخلوق ، بل تسميته مخلوقا كما يقول المعتزلة بدعة ، وظلم واعتداء على معتقدات القرآن والسنة ، وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله في جزء أفعال العباد أقوال أهل السنة والجماعة بالإضافة إلى الأقوال الأخرى أيضا . قال علي بن عبد الله : القرآن كلام الله ، من قال : إنه مخلوق فهو كافر .

وكان سفيان بن عيينة يعتبر في كبار علماء أهل السنة ، مرة قال غضبان : ويحكم ، القرآن كلام الله ، قد صحبت الناس وأدركتهم ، هذا عمرو بن دينار ، وهذا ابن المنكدر ، حتى ذكر منصورا والأعمش ومسعر بن كدام ، فقال ابن عيينة : قد تكلموا في الاعتزال والرفض والقدر ، وأمر باجتناب القوم ، فما نعرف القرآن إلا كلام الله ، ومن قال غير ذلك فعليه لعنة الله ^١ .

^١ خلق أفعال العباد للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م - ١٤٠٤هـ .

وبلغت جراءة الظاهرية إلى هذا الحد أنها قد نقلت روايات لكون القرآن غير مخلوق من الصحابة رضي الله عنهم ، وقد رفض الحافظ أبو أحمد هذه الأحاديث : ما يعرف الصحابة رضي الله عنهم الخوض في القرآن .

وسئل إسحاق بن راهويه : ما رأيك في قضية خلق القرآن الكريم ؟ فقال : القرآن كلام الله ، وعلمه ووحيه ليس بمخلوق . وكان عمرو بن دينار الذي صحب كبار الصحابة رضي الله عنهم يذكر موقفه نحو هذه القضية ، وكان يقول : على هذا مضى صدر هذه الأمة ، ولم يختلفوا في ذلك .

وسأل سائل الإمام زين العابدين علي بن الحسين رحمه الله عن هذا ؟ فقال : كتاب الله وكلامه ، وورد في رواية أنه قال : ليس بالخالق ولا بالمخلوق ، ولكن كلام الخالق ، ونفس هذا الجواب روي عن الإمام جعفر الصادق ، فقال : ليس بالخالق ولا المخلوق ، لكنه كلام الله تعالى ، وكان نفس هذا الموقف للإمام عبد الله بن المبارك : ليس بخالق ولا بمخلوق .

منصور بن عمار محدث ، إنه سئل : هل كلام الله هو الله أو جزء من الله أو غير الله ، فأجاب : عصمنا الله من الفتنة ، وجعلنا من أهل السنة والجماعة ، ليس للعباد على الله بعد الأنبياء من حجة ، نحن نعتقد أن هذا الجدل بالنسبة إلى القرآن الكريم بدعة ، يشارك فيه السائل والمجيب ، فالسائل يقع في أمر ليس عليه فرضاً ، والمجيب يتكلف شيئاً ليس عليه لازماً ، فلا اعتبر أحداً سوى الله خالقاً ، وما سواه فهو مخلوق ، والقرآن كلام الله ، توقفوا بعد ذلك ، ولا تذكروا صفة من القرآن من عندكم ، وإلا تضلوا ، وأمثال هذه الأقوال ماثورة من الأئمة الآخرين .

الاستواء :

الله موجود في السماء ، وهو موجود في كل مكان ، كلا المعنيين يوجد في القرآن الكريم ، ويوجد هذا المعنى أيضاً : (أَيْنَمَا تُؤَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) [البقرة : ١١٥] ، كما يوجد هذا المعنى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه : ٤] .

يقول بعض الأئمة من السلف عن هذه الآيات : إن الله في السماء

من حيث الوجود ، لكنه من حيث علمه ومعرفته في كل مكان ، وتقول
الجهمية : إن الله في كل مكان من حيث الوجود ، سئل الإمام مالك عن
معنى قوله تعالى : الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، فأطرق رأسه ، ثم قال :
الاستواء معلوم ، وكيفيته مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه
بدعة .

لقد ذكر الإمام مالك رحمه الله في هذه الجمل القواعد الكلية
لعلماء أهل السنة القدامى ، وهذه القواعد جُنة لجميع التساؤلات العقلية
والاعتراضات العامة ، وقد بين أسبابه فقال : إذا كان أساس معتقداتك
الجدل والمناظرة والدلائل العقلية فيمكن أن يأتي أمامك رجل ذلق اللسان ،
ويفحمك بحججك ، ويقتنعك بدلائلك فهل تترك دينك ؟ ثم يأتي بعد ذلك
رجل فصيح ، ويفند جميع الدلائل العقلية التي قنعت بها ، فهل تغير رأيك ،
فهل يتغير ويتبدل رأيك مع طلوع شمس وغروبها ؟
إزالة بعض الشبهات :

بعد دراسة سلسلة من هذه الكتابات يمكن أن ينشأ في أذهان
بعض الناس شبهة أن الدين مضاد للعقل عند أهل السنة والجماعة ، أو
على الأقل أن علماء أهل السنة لا يعتبرون موافقة الدين على العقل لازمة .
هناك أمران مهمان لحل هذه الشبهة ، (١) الأول أن مجموعة
العقائد والأعمال التي نعتبها ديناً ، والتي شرحها لنا صاحب الشريعة
صلى الله عليه وسلم شرحاً وافياً ، وهي الدين الحق ، وذكر لنا أصولها
وفروعها ، فليس أي جزء منها خلافاً للعقل ، فإن دلائلها لا تصح إلا ما
ذكرتها الشريعة بدعاؤها ، وهي توافق العقل تماماً ، لكن الجزء الذي
ليس جزءاً من الدين ، أي عناصر علم الكلام التي ليست مقتبسة من
القرآن والسنة الصحيحة ، وهي في الواقع جزء فاسد من هذا الجسد
يمكن أن تكون خلافاً للعقل ، وتعد من المستحيلات . (٢) والأمر الثاني
اللافت للنظر أننا إذا قلنا عن شيء أنه خلاف للعقل ، فكان معناه الآخر
أن العقل قد اعترف كلياً بشيء من قبل كانت دلائله قوية لا تتفصم ، ثم
يقول الدين عنه أمراً آخر ، إذا اعترف به المرء أبطل قضية عقلية ثابتة ،
لكن تأملوا قليلاً : أن القضايا المتنازعة في العقل والدين هل يمكن أن
نتكلم عنها : إن العقل أثبت بدلائله القوية المحكمة إثباتاً أصبحت قطعية ،

والخوض فيها رفض لقضية ثابتة ، ليس الأمر كذلك في الواقع ، فلا ينبغي أن يسرع المرء في تعيين أمر خلافاً للعقل ، ويمكن أن نقول على أكثر تقدير : إن عقولنا لا تحكم فيها حكماً قطعياً ، وصدق من قال :
مشكل عشق نه در حوصله دانش ماست حل این بکنه بایں فکر خطا نتوان کرد

(مشكلة الحب فوق علمنا وقوتنا ، ولا نستطيع حل هذه المشكلة بهذا الفكر القاصر الخاطئ)

ويمكن أن تنتقد - أيها القارئ - أخيراً : وفقاً لهذه القاعدة لا نستطيع أن نثير شبهة على الديانات المعادية للإسلام أن مستوى صحتها لا يكون عقلياً ، لكن نقول بكل صراحة : إن الأحكام والأمور التي فرضها الإسلام هي عقلية ، فإذا كان هناك أمر مخالف أو مضاد لها في أي ديانة فهو مخالف للعقل ، ويمكن أن تستعرض صحتها في ضوء العقل ، اعرفوا غايتنا الأصلية بكل وضوح ، وقد ذكر القرآن والحديث أنهما موافقان للعقل ، فاكتفوا بما ذكرنا ، وما لم يذكرنا لا يجوز شرحه ولا زيادته ولا نقصه بالعقل ، أي لا ينبغي أن نسير على هذا الدرب وفق خطتنا ، بل في ضوء نور الله الذي وسع كل شيء .

وفي الأخير لا بد من إزالة خطأ آخر ، لا ينبغي أن يتصور بكتابتي هذه أنني أعتبر العقل باطلاً ، بل أعتبر العقل محدود الاختيار ، إن حواسنا التي هي وسائل العلم لعقولنا ، ما تستمد منه عقولنا معلومات ودراسات هي باطلة في ما وراء المحسوسات ، فليس هذا ازدراءً للعقل ، بل هو تعيين لاختياره وقدرته ، فالعين لا تنظر إلا إلى مسافة محدودة ، والأذن تسمع في نطاق محدود ، فلا تتدخل وراء ذلك ، كذلك العقل الإنساني يحمل دائرة محدودة ، لا يخرج عنها ، كذلك كل حاسة لا تكون مؤثرة في دائرة أخرى ، وعلى هذا المنوال لا يؤثر العقل الإنساني خارج نطاقه ، فمن يشكو أننا كيف لا نطلع بعقولنا عائشين في عالم المادة على ما وراء المادة ، فعليه أن يشكو قبل كل شيء أننا لماذا لا نرى مباني وقصور لندن جالسين في لكتاؤ ، ولماذا لا نسمع أصوات الدبابات في ساحات الحرب بفرنسا ، ساكنين في الهند ؟

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الإنسانية في حاجة إلى مجتمع مثالي

===== العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسن الندوي رحمه الله =====

===== تعريب : الأستاذ فيصل أحمد الندوي * =====

[كلمة ألقاها سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسن الندوي في شيكاغو في ندوة المرأة المنعقدة في ١٩/ يونيو ١٩٧٧م ، وقمت بنقلها إلى العربية بأمر من الأستاذ الجليل السيد محمد واضح رشيد الحسن الندوي إذ كنت طالباً في المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي بندوة العلماء سنة ١٩٩٧م ، وظلت مطمورة في طي الأوراق مدة ثلاثين سنة تقريباً ، إذ وقع بصري عليها قبل أيام ، فأحببت أن تنشر لما لها من أهمية (فيصل)]
العشرة الإسلامية :

أيها الإخوة والأخوات ! إنني أشكركم من صميم قلبي على توجيهكم الدعوة إلي للحضور في هذه الندوة القيمة ، وأتحتّم لي فرصة للتحديث إليكم في موضوع هام خطير وحساس يتعلق بالحياة كلها ، كما أشكركم على التعديل في برنامجكم من أجل مشاركتي في هذه الندوة ، وبدل ذلك على كرمكم وسماحتكم .

أتلو عليكم الآن آية من القرآن الكريم تدل على وجهة الإسلام إلى العشرة والحياة الزوجية ، وتصورها وموقفها الجدي الواقعي في ذلك .

وهذه الآية هي فاتحة سورة النساء ، وتسمية السورة بسورة النساء دليل في ذاته على ما أحله الله لطبقة الإنث وهذا الجنس اللطيف من المكنانة والمنزلة ، يقول تبارك وتعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [سورة النساء ، الآية : ١] .

إن هذه الآية تلقي ضوءاً كاملاً على تصور الإسلام عن طبقة الإنث وكيفية الربط بين الزوجين ، وما على عاتق كل واحد منها من المسؤولية .

* أستاذ التفسير والحديث بدار العلوم لندوة العلماء ، لكاناؤ (الهند) .

ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق هذين النوعين الذكر والأنثى كخلق واحد ، وإن أحدهما يرتبط بالآخر كأنهما جزءان لجسم واحد لا ينفكان ، وأما ما يلاحظ في خلقهما من فرق يسير فلكي يقطع كلاهما مراحل الحياة بخير وعافية ، وطمأنينة وسكون .

وانظروا قبل كل شيء أن هاتين الطبقتين نبعهما نفس واحدة ، ثم قسمت هذه النفس الواحدة إلى قسمين ، ولا تناقض بينهما ولا تعارض ، بل يتجهان على نقطة واحدة ، قد منح هذا الإنسان المسافر الذي يقطع مراحل الحياة مرافقاً من جنسه وهو جزء من جسمه ، ثم انبث منهما النسل الإنساني وانتشرت الذرية البشرية ، قد بارك الله في ترافقهما وتوادهما كثيراً ، وكانت نسمتان فمات وألوف وملايين وملايين ، حتى استعصى على الكمبيوتر أن يحصى ما خلقه الله من الجنس البشري حتى الآن لا يعلمه إلا الله ، وقد أشار الله إليه بقوله " كثيراً " .

كل إنسان سائل ومسئول :

ثم يقول الله تعالى بعد هذه الحقيقة (اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ) [سورة النساء ، الآية : ١] ، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم لأول مرة أن كل فرد من أفراد المجتمع الإنساني مرتبط بغيره ولا يستتب أمره إلا بتعاون غيره ، فكل سائل وكل مسئول ، ولم يضع السائلين في جانب والمسئولين في جانب آخر ، بل قال يتساءلون ، التساؤل ، هو السؤال والجواب من الجانبين ، فالسائل مسئول أيضاً والمسئول هو سائل ، فالتساؤل هو ما يجري بين الفريقين من السؤال . وحياتنا الاجتماعية والمدنية هي حباله لا محيص عنها لكل فرد ، فكل واحد يحتاج إلى الآخر .

إن المرء لا يستطيع أن يقضي حياته الطبيعية بدون المرأة ، وكذلك المرأة لا تستطيع أن تعيش بسعادة وهناء من غير الزوج ، قد جُبل كل واحد منهما متسائلاً ومحتاجاً إلى الآخر ، حيث لا يتم معاش أحدهما إلا بالآخر ، فلا يقضي لبانته إلا بها ولا تفي بحاجتها إلا به .

اسم الله يقرب البعيد :

ثم قال : إن الذي تساءلون به هو الله ، فإن المجتمع الإسلامي لا

يقوم إلا على أساس توحيد الله وعظمته وقدرته وكبريائه ، ولا يحل اصطحاب الرجل المؤمن بالمرأة المؤمنة ومرافقته معها إلا إذا قرن ذلك باسم الله وعقد به ، فإن اسم الله هو الذي يقرب البعيد ويُدني القاصي ويحبب المبغض ويُرضي المعرض ويُربّت النافر ويؤلف بين قلوب الأعداء ، الذين لا تطيب نفس بعضهم ولا يرضى أن يرى وجه صاحبه ، فيجمع بين هؤلاء ويحبب بعضهم إلى بعض ويلقي بينهم مودة ورحمة ، حتى لا يتصور أن يعيش أحد الزوجين حياة أمن وهدوء وسعادة وهناء بغير رفيقه ويكونان مترافقين ، وكل واحد منهما قائم بواجبه نحو صاحبه ، إن التواصل بين الزوجين تواصل حب واعتماد بحيث قد يفوق حب الأبوين ، فما نرى بين الزوجين من اعتماد وثقة متبادلة وانسباط وألفة وحرية لا نتصوره في أي قرابة دونها ، وهذا كله من إعجاز اسم الله تبارك وتعالى .

يولد عالم جديد بتوسط اسم الله ، من كان إلى الأمس أجنبياً يصير اليوم أحب النفوس وأعزها . إن المسلم والمسلمة لا يحل لأحد منهما أن ينبسط ويسترسل إلى الآخر ، ولا يحل أن يصطحبا في السفر ، هو لها حرام وهي له حرام إلا بكلمة الله ، فتتشأ منها المحبة والمودة وتتوطد الوصلة والرابطة .

من بلاغة القرآن وإعجازه الباهر للعقول أن عبر بقوله "تساءلون به " عن ترابط المجتمع الإنساني وتلاصقه وتواصله تعبيراً يعجز عنه أفخم دستور قانوني وأعظم مرسوم تشريعي ، ويعجز عنه كذلك أضخم كتاب في علم الاجتماع ! وقال أيضاً : إن الاسم الذي تستحلون به المحرم وتستبيحون به المحظور ، وتحدثون به انقلاباً عظيماً في حياتكم هو اسم مبارك مقدس فاتقوه وعظموه واعرفوا قدره واحترموا ، وقد أوضح القرآن هذا الاتصال العميق والارتباط الوثيق بين الزوجين بتعبير أدق وأشمل ، فقال : (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) [سورة البقرة ، الآية : ١٨٧] ، انظروا إلى روعة هذا البيان القرآني وفخامته في إبراز معنى احتياج كل من الزوجين إلى الآخر ، إن التستر والتزين من أهم ما يحتاج إليه الإنسان في حياته ، وليست هناك كلمة أعم وأشمل من اللباس ، فشبه الله كلا من الزوجين باللباس للآخر .

ففي هذا التعبير نهاية ما يتصوره الإنسان من الترابط والتواصل بينهما ، كما أن اللباس يستر صاحبه ويكون هو إذ تجرد عنه أشبه

بالحيوان والوحشي منه بالإنسان ، كذلك الزواج يصون على صاحبه عرضه وعفته ، ويتدرج بغيره إلى الحياة الوحشية ويبعد عن الحضارة .

الزواج عبادة :

لم ينظر الإسلام إلى الزواج كحاجة للإنسان يقضيها لإشباع نفسه فحسب ، بل جعله عبادة يتقرب بها العبد إلى الله ، ويتعبير أوضح : إن تصور عقد النكاح هو للرابطة الازدواجية ليس أنه أمرٌ لا بد منه للحياة ولا يتمتع الإنسان ولا تحلو حياته بدونها ، بل منح الصبغة الدينية ووضع بمثابة العبادة ، ولذلك قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته نموذجاً رائعاً ومثلاً أفضل وقدوة طيبة وأسوة حسنة في ذلك ، وقال : " خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي " ^١ .

وفي السيرة النبوية أمثلة كثيرة لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يضمه من إكرام للمرأة ورعاية عواطفها الرقيقة ومشاعرها اللطيفة ، وما يراعيها ويقيم لها وزناً مما لا يوجد لدى أكبر مدافع عنها ومطالب بحقوقها ، وكذلك لا يوجد عند المقدسين والمتألهين والمتسككين ، بل ولا عند الأنبياء والمرسلين سواه ، وما نرى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم من الملائفة والمدارة لأزواجه المطهرة ، والمداعبة بهن والمشاركة معهن في أسباب التسلية والمتع المباحة والرعاية بعواطفهن والعدل بينهن لا تجد له نظيراً ولا مثيلاً .

ولم يقصر هذا عليهن ، بل تجاوز به إلى الأطفال وسلك معهم نفس السلوك حتى يخفف صلاته التي كانت أحب الأشياء إليه - وقد قال : " جعلت قرّة عيني في الصلاة " ^٢ - لئلا تضطرب وتزعج أم لطولها ، فإذا سمع بكاء الصبي تجوز في صلاته ، وهذا أكبر تضحية للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه ليس عنده شيء أهم ولا أعظم من الصلاة ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه " ^٣ .

^١ رواه الترمذي في المناقب ، باب فضل عائشة ، رقم : ٣٨٩٥ ، عن عائشة رضي الله عنها ، وابن ماجه في النكاح باب حسن معاشره النساء ، رقم : ١٩٧٧ .

^٢ أخرجه أحمد في المسند (١٢٨/٣ و ٢٨٥/٣) ، والنسائي ، رقم : ٣٣٩١ - ٣٣٩٢ .

^٣ رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه : البخاري في كتاب الأذان ، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ، رقم : ٧٠٩ ، و ٧١٠ ، ومسلم في كتاب الصلاة باب أمر

الحضارة الغربية آخذة في الهبوط :

فهذه النماذج أمامنا ، يقول الله : إن الاسم الذي تستعينون به لحاجتكم اسم عظيم يجب رعايته ، والاحتراف به ، والحياء منه ، فلا يستخدم لمجرد الاستمتاع بل يجب تأدية حقوقه ، وهذا الأمر للرجال والنساء سواء .

أنتم هنا في مجتمع أمريكي لا يكفيكم عرض العقائد الإسلامية ، بل لابد لكم أن تعرضوا النظام العائلي للإسلام أمام هذا المجتمع ، إن الحضارة الغربية تسرع (تسير سيرا حثيثاً) إلى الزوال والفناء ، لعلكم تشعرون بذلك ، لا يخفى ذلك على أحد ، وذلك بسبب أن انحل نظام الأسرة واختل ، وانتشرت فيها الفوضى والاضطراب والخلل ، ولا تزال الحياة الاجتماعية تتضاءل ، وتزول عنها الروابط والصلات والثقة بين الزوجين ، ويدعو هذا الوضع إلى قلق الفلاسفة وهمهم ، هائمين على وجوههم ، خائضين في فكرهم لحل هذه المشكلة ، يكتبون مقالات ، ويؤلفون كتباً ورسائل لكي يصونوا النظام العائلي للغرب من تشتت شمله وتفكك حبله .

لابد للزوجين من التوادد والتحاب والتآلف ، وفي ذلك لذة الحياة الحقيقية ، وبذلك يسهل الصبر على الفاقة - إن كانت - بطيب النفس وبدون شكوى ، ولم تنزل في بلادنا الشرقية أسر وبيوتات تعاني من الفقر وتتغذى بالكد والكدح ، ولكنهم يذوقون حلاوة الجنة بما فيهم من التحاب والتواصل ، وينسون فقرهم إذا رأوا وجه أخيهم . والمجتمع الأمريكي لم ينقصه شيء ، قد تراكمت الأسباب وتكدست الوسائل لديه ، وقد سخروا لهم طاقات كثيرة من العوالم ، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا أن يغيروا عالم قلوبهم ويحولوا بيوتهم إلى الجنة كما قال الشاعر محمد إقبال : " إن الذي يبحث عن منازل النجوم وممراته لم يقدر أن يسافر في عالم أفكاره " .

البحث عن الطمأنينة :

إن الذي استولى على أشعة الشمس وأمسكها بيده لم يستطع أن يحول ليل حياته الحالكة إلى الصبح المسفر ، لو كان إقبال حياً لقال : إن الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام ، رقم : ٤٧٠ ، وأخرجه البخاري عن أبي قتادة أيضاً .

الإنسان الغربي الذي وصل إلى القمر واستمر في البحث عن منازل النجوم لم يستطع السفر في عالم أفكاره ، ولم يستطع أن يجعل بيته باقة أزهار وجنة أشجار ، الذي سعى في توفير أسباب الدنيا لجعلها مثل الجنة ، قد صار بيته مثال جهنم ، وهو في ضجر دائم وضيق قائم لم يستطع المحييص عنه ، إن في أمريكا وأوروبا أسراً لم تكن عند أفرادها أي أثر لتسكين القلوب وترويح النفوس في البيوت ، فلا يشعرون إذا كانوا في بيوتهم أنهم يعيشون في هناء حال وراحة بال ، فيفرون من البيوت ويلجأون إلى النوادي والمنترهات يبحثون عن السلوة والطمأنينة .

الاحتياج والاحترام :

إنني أعتقد أن الذين يعيشون في هذا المجتمع منذ عشرات السنين لأعرف مني بهذه الأزمة والمأساة والجانب الضعيف ، فلا أرى باعثاً على مزيد من التفصيل ، فعلى كل حال إن الله تعالى قد عرض في هذه الآية صورة بدائية للاجتماع الإسلامي بأن المجتمع قائم على احترام بعضهم بعضاً واحتياج أحدهم إلى الآخر ، وكل إنسان محتاج إلى غيره ، ولكن الشعور بالحاجة والاعتراف بالمن والإحسان شيء آخر ، وهي حالة نفسية تعترى الإنسان ، وهذه الحالة النفسية يريد الإسلام أن يُنشئها في أتباعه كي يعتقد كل أحد منا نفسه محتاجاً إلى الآخر ، ويعترف باحتياجه إليه ويحترمه ويعظمه .

وأخيراً أدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقك للخير والسعادة ويهديك إلى سواء السبيل ، وأن تستطعن أن تعرضن في هذه البلاد نموذجاً رائعاً للحياة الإسلامية والاجتماع الإسلامي ، يستلفت أنظار هذا المجتمع المتضجر من الحياة ، فيندفع الناس إلى أن يطالعوا الروابط العائلية والاتصالات الاجتماعية للإسلام بجد وهدوء ، فيفضلوا هذا النظام الإسلامي على غيره وينبعث في قلوبهم أن لو يحظوا بهذه النعمة العظيمة . فإن فعلت ذلك لأسدتين إلى هذه البلاد منا عظيماً وإحساناً كبيراً ، ولأديتين واجباتكن نحو الدعوة الإسلامية .

أودعكن بهذه الكلمات القصيرة ، وأدعو أن ينتهي هذا الملتقى وهذه الندوة بنتائج حسنة .
وصلى الله على نبيه الكريم وسلم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

الإيمان بالملائكة

بقلم : الشيخ السيد بلال عبد الحي الحسني الندوي

ورد في مواضع عديدة من القرآن الكريم الإيمان بالملائكة بعد الإيمان بالله تعالى ، قال تعالى : (كُلَّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتِبَهِ وَرُسُلُهُ) [البقرة : ٢٨٥] ، والملائكة مخلوق الله تعالى ، لا يأكلون ولا يشربون ، وليست لهم حاجة بشرية ، خلقهم الله تعالى لمجرد عبادته ، فليست وظيفتهم إلا أن يمتثلوا أوامر الله تعالى ، ولا يعلم عددهم إلا الله ، فمنهم من يسمون بالحفظة ، وهم يحفظون الناس ، وعددهم كثير ، قال تعالى : (وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) [الأنعام : ٦١] ، ومنهم من يسمون كراماً كاتبين ، وهم يسجلون أعمال العباد الصالحة والسيئة ، قال تعالى : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) [الانفطار : ١٠-١٢] ، وقال تعالى : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق : ١٨] ، وفي الملائكة منكر ونكير أيضاً ، وهما يسألان في القبر ، وقد جاء في سنن أبي داود : ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك (سنن أبي داود : ٤٧٥٥) ، وقد ورد التصريح في رواية البيهقي باسم هذين الملكين : قال صلى الله عليه وسلم : فيأتيه منكر و نكير (شعب الإيمان للبيهقي : ٣٩٥) ، وفي الملائكة من هم على أبواب الجنة والنار ، وبعض منهم رئيس ملائكة الجنة ، وورد اسمه في الحديث ، قال صلى الله عليه وسلم : يا رضوان ! افتح أبواب الجنة (شعب الإيمان للبيهقي : ٣٦٩٥) ، وخازن النار اسمه مالك ، قال تعالى : (وَنَادَوْا يُمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) [الزخرف : ٧٧] .

وفي هؤلاء الملائكة ملائكة عظام ، يسمون بحملة العرش ، وهم يحملون العرش الإلهي ، ويشغلون دائماً بالتحميد والتسبيح ، قال تعالى : (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) [الزمر : ٧٥] ، وقال : (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) [الغافر : ٧] ، وقال : (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ([الشورى : ٥٥] ، وقد صرحت هذه الآيات بأن الله هو الغفور الرحيم ، والملائكة يدعون الله تعالى فقط ، لكن لا يملكون من المغفرة شيئاً .

وفي هؤلاء الملائكة يحمل أربعة منهم مكانة عظيمة ، ورد ذكر اسم اثنين منهم أيضاً في القرآن الكريم ، أولهما جبرئيل ، وهو سيد الملائكة ، ومسئوليته أن يبلغ الوحي الإلهي إلى أنبياء الله ورسله ، وثانيهما ميكائيل عليه السلام ، الذي يحمل مسئولية توزيع الأرزاق ، وينزل الأمطار ، وما عداهما ملكان ورد اسمهما كثيراً في الأحاديث النبوية ، وهما عزرائيل عليه السلام ، الذي يقبض الأرواح ، وإسرافيل عليه السلام الذي وضع فمه على البوق ينتظر متى يؤمر بالنفخ ، وجميع هؤلاء الملائكة مواظبون على أوامر الله تعالى ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، ولم يودع فيهم الله تعالى مادة العصيان والكفران .

وقد علمنا الإسلام عن هؤلاء الملائكة أن نعتبرهم معصومين ، فليست عصمتهم اختيارية ، بل هي اضطرارية ، لا يحيدون عن أمر الله قيد شعرة ، وقد أصيبت شعوب العالم بالضلالة عن الملائكة ، فاعتقد بعضها أنهم شركاء في الألوهية ، وقال كفار مكة : إنهم بنات الله ، وقال الله تعالى وهو يوجه الملامة والعار إليهم : إنهم يعتبرون البنات لهم وصمة عار وشنار ، قال تعالى : (أَلَرَبُّكَ الْمُبْنَاتُ وَلَهُنَّ الْمُبْنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْمُبْنَاتَ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) [الصافات : ١٤٩ - ١٥٤] ، وقال في موضع آخر : (أَفَأَصْنَأَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) [بني إسرائيل : ٤٠] ، وقال : (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ) [الزخرف : ١٩] ، وقال تعالى في سورة الأنبياء بكل صراحة : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْعُرُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) [الأنبياء : ٢٩] .

وكان اليهود والنصارى وبعض الشعوب الأخرى في العالم مصابين

بالإفراط والتفريط في الملائكة ، وكانوا يشركونهم في ألوهية الله تعالى ، فقد استنكر الإسلام ذلك استنكاراً شديداً ، وأعلن أنهم خلائق الله ، فلا تكون العبودية إلا لله ، وقد أكد الله ذلك في الآيات التالية بكل وضوح : (وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [آل عمران : ٨٠] ، وقال : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) [النجم : ٢٦] ، وقد اتهم اليهود بعض الملائكة بتهم زائفة ، بحيث إنهم يفعلون ما يشاءون ، فقد نفى الله تعالى هذه الفكرة عنهم قائلاً : (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) [البقرة : ٩٨] .

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم عن الملائكة عقيدة متوازنة أنهم خلائق الله الذين يطيعون جميع أوامر الله تعالى ، ولا يعصونها من ثقل ذرة ، ولا يستطيعون ذلك ، فليسوا شركاء في الألوهية ، ولا عصاة لله تعالى ، بل هم رسل الله في نظام الكون ، ومعنى الملك هو الرسول والمبلغ ، وجمعه الملائكة ، وهم ينفذون أحكام الله تعالى ، ويأتون بها إلى الأنبياء والرسل كمخلوق مضطر بدون تأخير ، خلق الله الإنسان أشرف الخلائق ، حتى فضلهم أيضاً على جميع الملائكة ، وجعله مسجود الملائكة ، ذلك لأن عصمة الملائكة اضطرارية ، فلا دخل فيها لإرادتهم ، رغم أن عصمة الإنسان اختيارية ، وجعل الله تعالى الأنبياء معصومين ، وما عدا الأنبياء يحفظ الله من شاء من عبادته ، وبما أن الإنسان يحمل خياراً وقدره ، فإن له فضيلة كبيرة ، إنه يخطئ ، ويزل ، لكنه يحفظ نفسه ، ويصون عرضه من الزلات ، هذا الذي يرفع قدره وشأنه ، أما الملائكة فإنهم لا يملكون هذه الموهبة ، لكن ليس معنى ذلك أن كل إنسان هو أفضل من الملائكة ، فالإنسان الكامل في بني آدم من لم يوسخ عرضه بالبهيمية ، وإذا توسخ جانب منه غسله بالتوبة الصادقة ، هذا الإنسان أفضل من الملائكة ، وفي هذا النوع من الناس الأنبياء عليهم السلام ، أما الإنسان الذي ينسى مكانته ، وينسى خالقه ، فإنه يعد في الحيوانات ، قال الله تعالى : (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) [الأعراف : ١٧٩] ، أمثال هؤلاء الناس أخس وأرذل من الحيوانات ، فأنى لهم من الملائكة ، إنهم لا يستحقون أن يسموا أناساً أيضاً

الِإِتْقَانُ وَالِإِحْسَانُ وَآثَرُهُمَا فِي بِنَاءِ الْمَجْتَمَعِ الْقَوِي

أ. د عبد المجيد أ أي *

إنَّ المتأمل في هذا الكون العظيم يقف مبهوراً أمام مشاهد الإبداع والإتقان التي تتجلى في كل ناحية من نواحي الوجود . فالشمس تشرق في موعدها المحدد دون تأخر أو اضطراب ، والقمر يسير في منازلها بدقة عجيبة ، والنجوم والكواكب تجري في أفلاكها وفق نظام محكم لا يختل ، مما يدل على عظمة الخالق سبحانه وكمال قدرته وحكمته .

وقد دعا القرآن الكريم إلى التفكير في هذا الكون ، والنظر في آيات الله الدالة على كمال صنعه وإبداع خلقه ، فقال سبحانه : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)^١ .

فالليل بما فيه من سكون وراحة ، والنهار بما فيه من حركة وعمل ، كلاهما يسيران وفق نظام دقيق يدل على الإتقان الإلهي البديع .

ومن أعظم مظاهر هذا الإتقان ما أخبر الله به عن الجبال التي تبدو للناس ثابتة جامدة ، بينما هي تتحرك بأمر الله ضمن النظام الكوني العظيم ، فقال تعالى : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابُ سُمْعٌ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)^٢ .

فالإتقان هنا ليس في جانب من جوانب الكون فحسب ، بل هو قاعدة عامة تشمل جميع المخلوقات ، ولذلك قال سبحانه : (أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) .

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في موضع آخر بقوله تعالى : (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)^٣ .

* عميد كلية الأنصار العربية ولاونور - كيرالا - الهند .

^١ النمل : ٨٦ .

^٢ النمل : ٨٨ .

^٣ الملك : ٣ - ٤ .

أي لا يرى الإنسان خلافاً ولا نقصاً ولا اضطراباً في هذا البناء الكوني المذهل مهما أعاد النظر والتأمل . وإذا كان الله سبحانه قد أظهر الإتقان في خلقه كله ، فإن المؤمن مأمور أن يتخلق بهذا المعنى في حدود قدرته البشرية ، وأن يجعل الإتقان منهجاً في عبادته وعمله وسلوكه .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه رضي الله عنهم على مراقبة الله تعالى في كل شأن ، فقال في حديث جبريل المشهور : " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " ^١ .

فهذا الحديث يؤسس لمبدأ الإتقان من داخله ؛ لأن من استشعر مراقبة الله تعالى اجتهد في تحسين عبادته وإصلاح عمله وإجادته .

ومن هنا فإن التفكير في إتقان الله تعالى لخلق لا يزيد المؤمن معرفة بربه فحسب ، بل يدفعه إلى الإحسان في عمله ، وإلى الابتعاد عن الإهمال والتقصير والفوضى ، ليكون عنصر بناء وإصلاح في مجتمعه وأمته .

وهكذا يتبين أن الإتقان ليس مجرد مهارة مهنية أو قيمة حضارية ، بل هو معنى إيماني عميق يبدأ من معرفة العبد بربه ، وتأمله في آياته الكونية ، ثم ينعكس على سلوكه وأعماله كلها .

هذه هي الصياغة المطلوبة للمقال الأكاديمي الأدبي ؛ حيث تكون كل فقرة بين صفحة ونصف وصفحتين تقريباً ، مع شرح الآيات ، وذكر الأحاديث أثناء التحليل ، وربطها بالواقع والدعوة والتربية والحضارة . وبذلك يمكن توسيع بقية المحاور :

الإتقان جوهر العبادة ولب الإيمان :

إن العبادة في الإسلام ليست حركات تؤدى بلا روح ، ولا ألفاظاً تُردّد دون حضور قلب ، وإنما هي صلة بين العبد وربّه تقوم على الإخلاص والإحسان والإتقان . ولذلك لم يكتف الإسلام بطلب أداء العبادة ، بل دعا إلى إحسانها وإجادتها وإتمامها على الوجه الذي يرضي الله تعالى .

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أعلى مراتب الدين عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان ، فقال : " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ

^١ صحيح البخاري .

لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" ١ .

فهذا الحديث العظيم يجعل المسلم يعيش حالة المراقبة الدائمة لله تعالى ، فإذا وقف في الصلاة استحضر عظمة الله ، وإذا صام راقب ربه في السر والعلن ، وإذا عمل أو دعا أو علّم أحسن وأتقن لأنه يعلم أن الله مطلع عليه . ولهذا أتى الله على المؤمنين المتقنين لعبادتهم فقال : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) ٢ .

فالخشوع ليس مجرد هيئة ظاهرة ، بل هو إتقان للصلاة وحضور للقلب وإقبال على الله تعالى . وقال سبحانه : (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) ٣ .

فالإحسان شرط في قبول العمل ورفعة صاحبه عند الله تعالى . ومن هنا كان السلف الصالح يجتهدون في إتقان عباداتهم أكثر من اجتهداهم في كثرة الأعمال ، لأنهم أدركوا أن الله لا ينظر إلى الصور والأشكال ، وإنما ينظر إلى الإخلاص والإحسان .

الإتقان في العمل وبناء الحضارة والأوطان :

إن الإسلام دين العمل والإنتاج والعطاء ، ولم يعرف في تاريخه الكسل أو التواكل أو الفوضى . ولذلك ربط القرآن الكريم بين الإيمان والعمل الصالح في عشرات المواضع ، مما يدل على أن الإيمان الحقيقي ينبغي أن يتحول إلى عمل نافع وإنتاج متقن . قال الله تعالى : (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) ٤ .

فالآية دعوة صريحة إلى العمل الجاد المسؤول ، وإلى تحمل المسؤولية أمام الله تعالى .

وقال سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) ٥ .

١ صحيح البخاري .

٢ المؤمنون : ١ - ٢ .

٣ البقرة : ١١٢ .

٤ التوبة : ١٠٥ .

٥ النحل : ٩٠ .

والإحسان يشمل كل مجالات الحياة ؛ في الصناعة ، والزراعة ، والتعليم ، والإدارة ، والطب ، والهندسة ، وسائر المهن والأعمال .
وقد قامت الحضارة الإسلامية في عصورها الذهبية على مبدأ الإتيان ، فكان العلماء يتقنون التأليف ، والأطباء يتقنون العلاج ، والمهندسون يتقنون البناء ، والتجار يتقنون معاملاتهم .
ولذلك أصبحت الأمة الإسلامية يوماً ما رائدة العالم في العلوم والمعارف والاختراعات .

إن الموظف الذي يؤدي عمله بإخلاص ، والمعلم الذي يربي الأجيال بإتقان ، والطبيب الذي يراعي مرضاه بأمانة ، كل أولئك يمارسون عبادة عظيمة إذا قصدوا بها وجه الله تعالى وخدمة الناس . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ " ^١ ، فالإحسان مطلوب في كل شأن من شؤون الحياة .

فضل الإتيان وثواب المحسنين :

لقد وعد الله تعالى المحسنين والمتقنين بأعظم الجزاء في الدنيا والآخرة ، لأنهم أدركوا رسالة الإنسان في هذه الحياة وقاموا بها على أكمل وجه . قال تعالى : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) ^٢ ، فكل جهد صادق وعمل متقن محفوظ عند الله تعالى ، وإن لم يره الناس أو يقدروه . وقال سبحانه : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ^٣ . ولم يقل : أكثر عملاً ، بل قال : (أَحْسَنُ عَمَلًا) ؛ لأن جودة العمل وإتقانه مقدمة على كثرته .

وقد قال الفضيل بن عياض رحمه الله : " أخلصه وأصوبه " . أي أن العمل المقبول هو ما كان خالصاً لله تعالى وصواباً على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن أعظم بشارات المحسنين قول الله تعالى : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَان) ^٤ ، فمن أحسن في عبادته ، وأحسن في عمله ،

^١ رواه مسلم .

^٢ الكهف : ٣٠ .

^٣ الملك : ٢ .

^٤ الرحمن : ٦٠ .

وأحسن إلى الناس ، جازاه الله بالإحسان في الدنيا والآخرة .

إبراهيم عليه السلام نموذج الإتقان في الدعوة :

من أعظم النماذج القرآنية التي تجسد الإتقان والإخلاص في الدعوة خليل الله إبراهيم عليه السلام . قال تعالى : (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)^١ أي وفى بجميع ما كلفه الله به من أوامر وتكاليف وابتلاءات .

فقد دعا قومه بالحكمة ، وحاورهم بالبرهان ، وصبر على أذاهم ، وكسر الأصنام دفاعاً عن التوحيد ، وهاجر في سبيل الله ، واستجاب لأمر الله في ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام .

وكان عليه السلام مثلاً للصدق والإخلاص ، ولذلك قال الله تعالى : (وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)^٢ .

ومن دلائل إتقانه في الدعوة أنه كان دائم التفكير في مستقبل الرسالة وانتشار التوحيد ، ولذلك دعا ربه قائلاً : (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)^٣ فاستجاب الله دعاءه ، وجعل له الذكر الحسن في الأمم كلها إلى يوم القيامة .

محمد صلى الله عليه وسلم : القدوة الكاملة في الإتقان والإحسان :

إذا كان إبراهيم عليه السلام نموذجاً عظيماً للإتقان ، فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو أكمل البشر في تحقيق هذا المعنى . قال الله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)^٤ .

لقد اتقن النبي صلى الله عليه وسلم تبليغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وربى أصحابه على أكمل منهج .

وكان يتعامل مع الناس بالرحمة والحكمة والرفق ، كما قال تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)^٥ .

وقد ظهر إتقانه صلى الله عليه وسلم في جميع مجالات الحياة ؛ في العبادة ، وفي القيادة ، وفي القضاء ، وفي التربية ، وفي الجهاد ، وفي بناء

^١ النجم : ٣٧ .

^٢ مريم : ٤١ .

^٣ الشعراء : ٨٤ .

^٤ الأحزاب : ٢١ .

^٥ آل عمران : ١٥ .

المجتمع . ومن تأمل سيرته وجد أن نجاح دعوته لم يكن قائماً على الحماس وحده ، بل على التخطيط الدقيق ، والصبر الطويل ، والعمل المتواصل ، والتوكل الصادق على الله تعالى .

ثمار الإتقان على الفرد والمجتمع :

إن الإتقان يصنع الإنسان الناجح الواثق من نفسه ، ويجعله عنصراً نافعاً في أسرته ومجتمعه . فالمجتمع الذي ينتشر فيه الإتقان تقل فيه الفوضى ، وتكثر فيه الأمانة ، ويزدهر فيه الاقتصاد ، وتتقدم فيه العلوم والمعارف . أما المجتمعات التي ينتشر فيها الإهمال والتقصير فإنها تعاني من التأخر والضعف وضياع الحقوق . ولذلك فإن الأمة الإسلامية اليوم بحاجة ماسة إلى إحياء قيمة الإتقان في المدارس والجامعات والمؤسسات والدعوة والإعلام وسائر المجالات .

فإذا عاد الإتقان إلى حياة المسلمين عادت للأمة قوتها وريادتها ، وحقت رسالتها في الشهادة على الناس ونشر الخير في العالم . قال تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)^١ ولا يمكن للأمة أن تقوم بهذه الرسالة العظيمة إلا بالعلم والإخلاص والإحسان والإتقان .

المراجع والمصادر :

١. القرآن الكريم .
٢. الإمام البخاري ، الجامع الصحيح ، دار طوق النجاة ، تحقيق محمد زهير الناصر .
٣. الإمام مسلم ، صحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٤. الإمام الترمذي ، سنن الترمذي ، دار الغرب الإسلامي .
٥. الإمام النووي ، شرح صحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي .
٦. الإمام ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض .
٧. الإمام الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مؤسسة الرسالة .
٨. ابن القيم ، مدارج السالكين ، دار الكتاب العربي .
٩. أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، دار المعرفة ، بيروت .

^١ البقرة : ١٤٣ .

مآخذ تفسير القرآن الكريم

بقلم : الشيخ المفتي محمد تقي العثماني

تعريب : الأستاذ عبد الله عبيد الله *

إن البحث الأهم والضروري بعد تعريف علم التفسير هو بيان مآخذ تفسير القرآن الكريم ، فما هي مآخذ تفسير القرآن الكريم ؟ وما هي الذرائع والمصادر التي بإمكاننا أن نعرف من خلالها تفسير آية من الآيات ؟ الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى قدر من البسط والتفصيل الذي سنتطرق إليه هنا .

في البداية ، يجب أن نعرف أن الآيات القرآنية نوعان : نوع معانيها واضحة ميسرة ، لو قرأها من له معرفة باللغة يدرك معناها من غير صعوبة ؛ فلا مجال لاختلاف الرأي في تفسير هذا النوع من الآيات ، ومآخذ تفسير هذا النوع من الآيات هي لغة العرب ، فلا حاجة إلى شيء سوى المهارة في اللغة العربية لفهم معاني هذا النوع من الآيات^١ . لكن النوع الثاني من الآيات : ما يوجد فيه إجمال ، أو إبهام ، أو صعوبة في تفسيرها ، أو توجد حاجة شديدة إلى فهم أسباب نزولها لتفهم الآية جيداً ، أو تستنبط منها مسائل شرعية دقيقة ، أو تستخرج منها أسرار ومعارف عميقة ؛ فلا تكفي لفهمها معرفة اللغة فحسب ، بل لا بد من مجموعة من المعلومات ، وفيما يلي بيان لمآخذ تفسير هذا النوع من الآيات ، وهي ستة :

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) الأحاديث النبوية .
- (٣) أقوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم .
- (٤) أقوال التابعين .
- (٥) لغة العرب .

* الأستاذ بدار العلوم زاهدان .

^١ منقول بتصرف من البرهان للزركشي (١٧١/٢) النوع ٤١ . فصل بعد كلام الصوفية في القرآن ، والإتيان : (١٨٣/٢) النوع ٧٨ ، آخر الكلام على التفسير بالرأي .

(٦) العقل السليم .

سنبحث هنا بالتفصيل في جميع هذه المآخذ ومكانة كل منها في علم التفسير .

المآخذ الأول : القرآن الكريم :

المآخذ الأول لعلم التفسير هو القرآن الكريم نفسه ، وفي كثير من الأحيان نجد في الآية إجمالاً يحتاج إلى شرح وبيان ، وقد نجد أن القرآن الكريم يفسر معناه ومفهومه في آية أخرى ، فمثلاً نحن نقرأ في سورة الفاتحة : (صراط الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) [الفاتحة : ١ - ٧] ، والمعنى هنا مجمل في الذين أنعم الله عليهم ، وهذا الإجمال ورد تفسيره في آية : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) [النساء : ٦٩] .

هكذا في آية : (تَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ) [البقرة : ٣٧] ، لم يرد ماذا كانت تلك الكلمات ؟ لكن ورد بيان المراد من تلك الكلمات في قوله : (قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الأعراف : ٢٣] .

كذلك ورد في آية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) [التوبة : ١١٩] ، فلم تكن في الآية إشارة إلى المراد من الصادقين ، لكن ذكر المراد منهم في آية : (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [البقرة : ١٧٧] .

فالآية المذكورة بينت المراد من الصادقين وهم الذين تتوافر فيهم الصفات المذكورة .

أشرنا إلى ثلاثة نماذج فقط ، والقرآن الكريم مليئ بمثل هذه الآيات .

والشكل الثاني من تفسير القرآن بالقرآن أن يكون المعنى مجملاً في قراءة ، ويرد مفسراً في قراءة أخرى ؛ مثاله طريقة الوضوء التي وردت في آية : (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) [المائدة : ٦] فقد وردت في قراءة (وَأَرْجُلَكُمْ) ، والآية تحتمل

مسح الرجلين وغسلهما ، لكن ورد في قراءة أخرى ب (أرجلكم) ، وفي هذه الصورة لا تحتل الآية إلا معنى واحداً ، وهو غسل الرجلين ، ودلت هذه القراءة أن المأمور به في القراءة الأولى أيضاً غسل الرجلين ، وليس المسح الذي تحمله الآية .

يعد تفسير القرآن الكريم بالقراءات المتواترة تفسيراً قطعياً و يقينياً ، والقراءات المشهورة وإن كانت لا توجب علماً يقينياً ، لكن لها أهمية كبيرة في التفسير ، والقراءات الشاذة قد اختلفت آراء العلماء فيها ، فبعضهم : لا يهتمون بها في تفسير القرآن الكريم ، وبعضهم يرونها في مستوى خبر الواحد ، وتفاصيل هذا البحث مذكورة في كتب أصول الفقه .

الشكل الثالث من تفسير القرآن بالقرآن أن تفسر الآية المطلوبة بالتعمق في سياقها وسباقها (Context) ، وبهذا الأسلوب تتبين أحياناً المسألة التي تحتاج إلى شرح وبسط في الآية ، مثاله خطاب الله تعالى لأمهات المؤمنين في سورة الأحزاب ، إذ قال لهم : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) [الأحزاب : ٣٣] ، وقد رأى بعض من لا علم لهم بالقواعد الشرعية أن الخطاب في هذه الآية خاص بأمهات المؤمنين ، فزعموا أن الحجاب خاص بهن دون غيرهن من النساء المسلمات ، لكن سياق الآيات وسباقها يفند رؤيتهم هذه ، فقد خاطبت الآيات - التي سبقت هذه الآيات والتي وردت بعدها - أمهات المؤمنين بأحكام أخرى ، مثل : لا يخضعن بالقول ، ويقلن قولاً معروفاً ، ويقمن الصلاة ، ويؤتين الزكاة ، ويطعن الله ورسوله ، وليس في هذه الأحكام ما يقول عنه شخص عاقل : إنه خاص بأمهات المؤمنين دون غيرهن من المسلمات ، لذلك فالقول إن حكم عبارة واحدة من بين تلك الأحكام كلها ليس لجميع النساء مخالف لسياق الآية وسباقها ، كما أنه مخالف لسائر الآيات القرآنية وكافة الأحاديث النبوية ، والحقيقة أن هذه الأحكام لجميع المسلمات ، وإنما خصت بالخطاب الأزواج المطهرات ؛ لأن مهمتهن في القيام بالفرائض الشرعية أعظم ، ويجب عليهن الاهتمام بها أكثر .

وقد ورد في موضع آخر : (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) [الأحزاب : ٥٣] ؛ فاستدل بعض من لا علم لهم بهذه الآية أن الخطاب فيها خاص بأزواج النبي الكريم ، مع أن العبارة الأخرى من هذه الآية تدل على أن الحكم يعم النساء جميعاً ، وهي قوله : (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) .

فلا شك أن طهارة القلوب ليست مختصةً بأزواج النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، بل تعم جميع المؤمنات ، فكيف يصح تخصيص حكم الآية على بعض النساء .

ورد في سورة الأحزاب أيضاً قوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) [الأحزاب : ٣٣] ، فقال بعضهم في معنى هذه الآية : إن المراد من أهل البيت في هذه الآية أولاد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، والآية لا تشمل الأزواج المطهرات ، لكن سياق الآية وسباقها يرفض هذه الفكرة بكل وضوح ؛ لأن الخطاب قبل هذه الآية وبعدها موجه نحو أزواج الرسول ، فكيف يمكن أن لا تشملهم الآية ؟ ولا سيما ورد في الآية التالية لها قوله : (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ) [الأحزاب : ٣٤] ، والتي تدل كلمة (البيوت فيها على أن أزواج النبي الكريم أول من يدخلن في معنى أهل البيت ، ولا يعقل استثناءهن من معنى الآية .

إذا تعمقنا في القرآن الكريم تبين لنا أن الكثير من مسأله تحل بالنظر في سياق الآيات وسباقها ، وقد يكون تفسير الآية بناءً على السياق والسباق واضحاً لا يدع مجالاً لذي عقل أن يرفضه ، وهذا النوع من التفسير قطعي وقييني ، وفي بعض الأحيان التفسير الذي يكون وفقاً للسياق والسباق ليس واضحاً ، إذ تختلف آراء العلماء المجتهدين في الأخذ أو الامتناع عن الأخذ به .

ما ذكرناه إشارة مختصرة إلى تفسير القرآن بالقرآن ، وبعضهم قد ألفوا تفسيراً كاملاً في هذا الموضوع ، والترموا فيه تفسير كل آية بآية أخرى ، ولقد أشار العلامة السيوطي في كتابه " الإتقان " إلى أن العلامة ابن الجوزي كتب تفسيراً من هذا القبيل .^١

كتب أيضاً عالم المدينة الطيبة الشيخ محمد أمين بن محمد مختار الشنقيطي قبل سنوات كتاباً قيماً في هذا الموضوع ، وانتشر باسم أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ذكر في مقدمته الصور المختلفة من تفسير القرآن بالقرآن بشيء من البسط والتوضيح .^٢

^١ هناك دلائل واضحة أخرى على عمومية فريضة الحجاب ، وإنما ذكر هناك السياق والسباق كمثال .

^٢ الإتقان (١٧٥/٢) ، النوع : ٧٨ .

^٣ أضواء البيان (٧/١ - ٣٧) ، طباعة : دار الإصفهاني جدة ، ت : ١٣٧٨ .

المأخذ الثاني : الأحاديث النبوية :

المأخذ الثاني لتفسير القرآن الكريم هو الأحاديث النبوية : لقد ذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة أن الغاية من بعثة الرسول الكريم أن يبين الآيات القرآنية بأقواله وأفعاله ، كما ورد في سورة النحل : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل : ٤٤] .

فقد ذكر الله سبحانه في هذه الآية صراحة أن الهدف من بعثة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم تبين القرآن الكريم للناس ، كذلك ورد في موضع آخر : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [١٦٤] . كذلك ورد في سورة النساء : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) [النساء : ١٠٥] . وورد في سورة النحل : (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [النحل : ٦٤] .

أشار القرآن الكريم في هذه الآيات إلى أن الغاية من بعثة سيد الكائنات إلى الدنيا هي : أن يبين للناس تعاليم القرآن الكريم ، وأسرارها ومعارفها ، ويعلمهم الحياة وفقاً لها ، فالقرآن الكريم يعلمنا هذه الحقيقة بأن تعاليم الرسول الكريم من أهم مأخذ تفسير القرآن الكريم .

ومن يعرف تفسير كتاب من الكتب السماوية أفضل ممن نزل عليه ذاك الكتاب ؟ وليس في العالم أغبى ممن يدعي : أن القرآن الكريم نزل على الرسول الكريم ، ولكني أعلم تفسيره أحسن منه .

وبعضهم يوردون مغالطة بأنه لا شك في أهمية تعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن الكريم ، فهي مسلمة للجميع ، لكنها لم تصلنا من طرق موثوق بها ، فلا نستطيع أن نثق بها ! معنى هذه المغالطة : أن الله تعالى بعث رسوله صلى الله عليه وسلم معلماً للقرآن ، وصرح مراراً بأننا بعثناك لتبين كتاب الله وتوضيحه ، فالمفروض على المسلمين إلى يوم القيامة أن يتبعوا تعاليمك ، ومن جانب آخر ليست هناك أي خطة لحفظ تعاليمك إلى يوم القيامة !

فهل يقول بمثل هذا من يؤمن بالحكمة البالغة لله تعالى وقدرته الكاملة ؟ وهل يقول به من يقرأ هذه الآية للقرآن الكريم : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة : ٢٨٦] ؟

وبعضهم يبالغ في القول بهذا إلى أن يقول : لا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معلماً القرآن في عصره ، لكن لا حاجة إلى تعاليمه في عصرنا !

وليس معنى هذا الكلام الباطل لهم إلا أن يقال : إن الصحابة رضي الله عنهم لم يفهموا القرآن بغير تعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، مع أن اللغة العربية كانت لغتهم ، وكانوا يعرفون المعنى اللغوي لكل لفظ ، والمعنى الرائج المستعمل له ، وكانوا يعرفون البيئة الكاملة لنزول القرآن الكريم ، بل عاشوا تلك البيئة عملياً ، وكانوا يشاهدون أسباب نزول كل آية بأعينهم ، بينما أهل هذه القرون التي ليست العربية لغتهم الأصلية ، ولم يعيشوا بيئة نزول القرآن ، ولم يشاهدوا أسباب نزوله ، ليسوا بحاجة لفهم القرآن الكريم إلى تعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فهل يصدق هذا الكلام التافه من عنده إنصاف وعقل ؟!

ثم الطرق التي وصلتنا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من خلالها ، وإلى أي مدى يوثق بها بحث مستقل آخر ، فهناك مكتبة كبيرة لعلم الحديث وأسماء الرجال لأجل دراسة هذا البحث ، فإن درسنا تلك العلوم بقلب سليم ، وليس بحثاً عن مبررات لتحقيق الأهواء ، سندرك أن الله تعالى لم يجعل تعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم واجبة الاتباع إلى يوم القيامة فحسب ، بل ضمن حفظها أيضاً ، فحينما يشاهد العقل الإنساني تفاصيل هذا الحفظ الإلهي يبقى متحيراً ، فلو وضعنا العلوم الحديثية المتشعبة الكثيرة الأخرى في جانب ، وألقينا فقط نظرة في علم واحد منها كعلم أسماء الرجال ، لنجدنه مآثرة جديرة بالفخر ومحيرة للعقول لا نجد مثلها في الأمم الأخرى ، ففي هذا العلم جرى اهتمام كبير بكل شخص روى حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ عصر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ، فذكر فيه أين ولد هذا الرواي ، وممن روى الحديث النبوي الكريم ؟ وبمن التقى من الرواة ؟ كيف كان سلوكه العام ؟ وكيف كان ضبطه وقوة ذاكرته ؟ إلى أي مدى كان ملتزماً بالحذر والحيطه في أثناء الرواية ؟ ما آراء العلماء المعاصرين أو الذين أتوا من بعده فيه ؟ واليوم ابحتوا عن اسم راو من رواية أي كتاب حديثي ، تجدوا أجوبة الأسئلة المذكورة بشأنه في كتب أسماء الرجال .

لا نقصد هناك التطرق إلى بحث طويل حول حفظ الحديث ؛ لأن

هناك كتباً مبسوطَةً ألفت في هذا الموضوع ، لكن لا بد من الإشارة إلى أن الإعراض عن أحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وإنكارها في مجال تفسير القرآن الكريم سلوك لو تعمقنا فيه من ناحية القرآن الكريم ، والوقائع التاريخية ، ومجرد العقل ، لكانت النتيجة واحدة ، وهي أن أساس هذا السلوك يفتقد أدنى ذرة من العقلانية ، ولا ينكر أحد أن التراث الحديثي يوجد فيه الصحيح والضعيف وجميع أنواع الروايات ، فلا يمكن الجزم بكل حديث يوجد في كتاب ، بل لا بد من التثبت والتبيين فيه وفقاً لأصول الحديث ، ليعلم هل تنطبق عليه تلك الأصول أم لا ؟ لا سيما الروايات التي توجد في كتب التفسير ، فالحاجة إلى بحثها والتدقيق فيها شديدة ، وذلك لأن أكثر المفسرين جمعوا في كتبهم أنواع الروايات بغض النظر عن أسانيدھا ، ولم يبحثوا فيها عن أساليب المحدثين ، لذلك لا يمكن لأحد الاستفادة الجيدة من هذه الأحاديث إلا إذا كان ماهراً في علم الحديث ، وما يتعلق به ، وتكون لديه معرفة بضوابط تمييز الروايات الصحيحة من غيرها .

المأخذ الثالث : أقوال الصحابة رضي الله عنهم :

إن الذين تلقوا القرآن الكريم من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة هم الصحابة الكرام ، فمنهم من وقف حياته كلها في أن يتعلم القرآن الكريم وتفسيره ، وما يتعلق به من أقوال الرسول وأفعاله ، وهؤلاء كانوا أهل اللسان ، وكانوا عارفين تماماً بالبيئة التي ينزل فيها القرآن الكريم ، لكنهم بدل أن يعتمدوا على معرفتهم اللغوية ، تعلموا القرآن الكريم آية آية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول التابعي المشهور الإمام عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن - كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي له عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل^١ ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة ، وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا^٢ ، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانين سنين^٣ .

^١ الاتقان (١٧٦/٢) النوع : ٧٨ .

^٢ رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده .

^٣ أخرجه الإمام مالك رحمه الله في الموطأ .

لا شك أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه لم يكن ضعيف الذاكرة ، فهو لم يحتج ثمانى سنوات لضبط ألفاظ سورة البقرة من القرآن الكريم ، وإنما قضى هذه المدة ؛ لأنه كان يتعلم تفسيرها وما يتعلق بها من علوم . يقول سيدنا عبد الله بن مسعود : والذي لا إله غيره ! ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته ^١ .

لذلك تعد أقوال هؤلاء الصحابة الذين تحملوا في تعلمهم القرآن الكريم كل محنة وتضحية المأخذ الثالث الأهم لتفسير القرآن الكريم ، لكن يجب في هذا المجال التركيز على ما يلي من الأمور : يوجد في أقوال الصحابة الصحيح والضعيف ، فلا بد من التثبت في حكمها وفقاً لأصول الحديث قبل الاحتجاج بها .

يُحتج بأقوال الصحابة إذا لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسير صريح موثق ، فإن نقل عنه تفسير بأحاديث صحيحة ، تبقى أقوال الصحابة كشواهد لها فقط ، ويرفض قول الصحابي إذا عارض التفسير المنقول من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما تؤخذ التفاسير المنقولة من الصحابة إذا لم ينقل عن رسول الله تفسير بروايات صحيحة ، ولم يكن أيضاً اختلاف في التفاسير المنقولة من الصحابة رضي الله عنهم . إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك ، وإن تعذر يرجح المجتهد القول الذي قوي الاستدلال فيه ^٢ .

المأخذ الرابع : أقوال التابعين :

المراد بالتابعين : هم الذين تلقوا الدين والعلوم من الصحابة رضي الله عنهم ، واختلفت آراء العلماء في أقوال التابعين : هل هي حجة في تفسير القرآن الكريم أم ليست بحجة ؟ ذكر الحافظ ابن كثير أحسن الأقوال في هذا المجال ، إذ قال : إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين ... ثم أضاف قائلاً : التابعون إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض ، ولا على من بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة

^١ تفسير ابن كثير (٣/١) .

^٢ منقول باختصار من أصول البرهان (١٧٢/٢) ، والاتقان (٢/٢) من ١٧٦ إلى ١٧٨ .

العرب ، أو أقوال الصحابة في ذلك ^١ .

المأخذ الخامس : لغة العرب :

أشرنا في السابق إلى أن اللغة العربية تعد المأخذ الوحيد لتفسير القرآن الكريم ، إذا كان معنى آية من القرآن الكريم واضحا بديها ، ولم يكن في مفهومه تعقيد أو إبهام أو إجمال ، ولم تكن هناك حاجة لفهمها إلى أسباب تاريخية ، ولكن لا تكفي اللغة إذا كان هناك إجمال أو إبهام في معنى الآية ، أو كان فهمها منوطا بدراسة حادثة أو واقعة ، أو كانت الآية تستتبط منها أحكام فقهية ، بل يجب اللجوء أولا إلى سائر آيات القرآن الكريم ، والسنة النبوية وآثار الصحابة والتابعين ، بعد ذلك يرجع إلى لغة العرب أيضا ، والسبب في ذلك أن اللغة العربية لغة واسعة ، فلفظ واحد فيها يستعمل لمعان عديدة ، وعبرة واحدة قد تترجم إلى معان مختلفة ، فتعين معنى واحد من بين المعاني المختلفة بالاعتماد المجرد على اللغة يؤدي إلى الوقوع في الأخطاء ، لأجل هذا أنكر بعضهم أن تكون اللغة مأخذا مستقلا لفهم معاني القرآن الكريم ، وينسب إلى الإمام محمد أنه كره تفسير القرآن الكريم باللغة ، لكن يقول العلامة الزركشي : إن الكراهة تحمل على من يصرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة يدل عليها القليل من كلام العرب ولا يوجد غالبا إلا في الشعر ونحوه ويكون المتبادر خلافها ^٢ ، فلا شك أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب ، وراعي التعابير المتداولة في مخاطباتهم اليومية ، فعندما يفتقد تفسير الآية في القرآن أو السنة أو آثار الصحابة ، يجب أن تفسر بما تبادر من كلام العرب ، وإن تمثل بأشعار العرب ، ولا ينبغي بيان تلك المعاني الغربية التي هي غير رائجة في التخاطبات العامة للعرب ، وإن وجدت مكتوبة في مصادر اللغة والأدب .

لنفهم هذا من خلال مثال ، فلما طلب قوم موسى عليه السلام منه الماء ، أمره الله تعالى قائلاً : (فَقُلْنَا اضْرِبْ عَصَاكَ الْحَجْرَ) [البقرة : ٦٠] .

هذا الكلام لو عرض على من يعرف اللغة ، يتبادر إلى ذهنه المعنى المعروف وهو : ضرب الحجر بالعصا ، وهذا هو التفسير الصحيح والمعروف لهذه الآية ، لكن فسر سر سيد أحمد خان بحملها على المعاني

^١ تفسير ابن كثير (٥ / ١) المكتبة التجارية الكبرى سنة : ١٣٥٦ هـ .

^٢ البرهان (١٦٠ / ٢) النوع : ٤١ ، أمهات مأخذ التفسير .

الغريبة في اللغة العربية ، فقال : إن معنى هذه الآية : سر في الصخر مستخدماً عصاك^١ ، فتفسير الضرب بالسير ، وتفسير الحجر بالصخر تفسير يرده كلام العرب الرائج بقوة^٢ .

قال الفضل بن زياد عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، وقد سئل عن القرآن تمثل له رجل ببيت من الشعر فقال : ما يعجبني^٣ ، ولا شك أن هذا النوع من استخدام اللغة لا يؤيده من كان عاقلاً منصفاً .

المأخذ السادس : العقل السليم :

العقل السليم من لوازم كل عمل من أعمال الدنيا ، ولا شك أن الاستفادة من المأخذ الخمسة السابقة لا يمكن بغيره ، لكن الهدف من ذكره بوصفه مأخذاً مستقلاً هنا هو أن أسرار القرآن الكريم ومعارفه بحر لا ساحل له ، فيمكن فهم معانيه بقدر الضرورة من خلال المأخذ الخمسة الماضية ، ولا يمكن أن يقال عن أسرار وحكمه وحقائقه في عصر من العصور : إنها قد انتهت أو اكتملت ، ولا يوجد المزيد في هذا المجال ، لكن الحقيقة أن أبواب التأمل والتعمق في حقائق القرآن الكريم وأسراره مفتوحة إلى يوم القيامة ، وبإمكان كل شخص وهبه الله تعالى علماً وعقلاً وخشية وإنابة أن يحصل على حقائق جديدة من خلال التدبر في كتابه ، لذلك كان مفسرو كل عصر يضيفون - حسب فهمهم - في هذا الباب ، وبهذا دعا رسول الله لعبد الله بن عباس : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " ^٤ .

والجدير بالذكر أن الحقائق والأسرار التي يستتبها العقل ، أو يصل إليها الفهم تقبل ما لم تتصادم مع سائر الأصول الشرعية ، ومع تلك المأخذ الخمسة التي مر ذكرها آنفاً ، ولا شك أنها تبقى بلا قيمة وأهمية إذا كانت تقدم معنى متناقضاً مع تلك الأصول والقواعد .

^١ تفسير القرآن ، لسر سيد أحمد خان (٩١/١) ، طبع في لاهور .

^٢ ذكرنا كلام سر سيد خان كمثال ، والحقيقة أن هذا التفسير الذي بيّنه هنا لا تؤيده اللغة أيضاً ، فهو تفسير خاطئ من ناحية اللغة أيضاً ، فالضرب يكون بمعنى السير إذا استعمل بصلة في ، كقوله تعالى : وإذا ضربتم في الأرض . وفي قوله تعالى : واضرب بعصاك الحجر ، لم يستعمل بصلة في .

^٣ البرهان (١٦٠/٢) النوع : ٤١ .

^٤ البرهان ، (١٦١/٢) النوع : ٤١ .

تصنيف العلوم عند ابن الأڪفاني

د . مرزوق العمري*

الباحث في تصنيف العلوم عند المسلمين يسجل أمرين أساسيين في تاريخ هذا الفضاء الفكري الإسلامي : أما الأول فيتمثل في شبهة آثارها الاستشراق الحديث مفادها أن العملية التصنيفية عند المسلمين ما هي إلا نقل عن اليونان ، وهذه الشبهة متضمنة في شبهة أكبر منها ، والتي تقضي بأن الفلسفة الإسلامية ككل فلسفة يونانية نقلت وكتبت باللغة العربية . كما قال المستشرق الإنجليزي دي بور^١ . وبما أن علم تصنيف العلوم رافد فلسفي فقد سحب عليه هذا الحكم أيضاً . والأمر الثاني أن العملية التصنيفية عند المسلمين أنفسهم تم تصنيفها إلى صنفين أساسيين : صنف فيه تقليد وصنف أصيل لا تقليد فيه . وإثباتاً لهذه الأصالة أيضاً يرجع مؤرخو الفكر والعلوم عند المسلمين المحاولات التصنيفية الأولى إلى ما سجلته الحضارة العربية الإسلامية منذ منتصف القرن الثاني الهجري من حركات علمية رائدة في مجالات علمية مختلفة نتجت عنها حركة التدوين الكبرى للعلوم العربية الإسلامية ، وكذا بداية حركة نقل العلوم الأجنبية وترجمتها إلى العربية . ولكن الذي تجدر الإشارة إليه أن بدايات النظر في مبادئ علم التصنيف وإجراءاته قد ترجع إلى ما قبل هذه المرحلة ؛ لأن محاولة التمييز بين أنواع العلوم والمعارف العربية تعود إلى المراحل الأولى من التاريخ الإسلامي ، حيث اقترنت تلك المحاولات ببدايات النظر في نص الوحي (= قرآناً وسنة) والشعر العربي وعلوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض وذلك ما يؤكد أصالة الفكر التصنيفي عند المسلمين . ولهذا بعض التصنيفات التي جاءت بعد ذلك مثلت الامتداد لهذا الخط الأصيل وتسعى إلى تأكيد هذه الأصالة الإسلامية مثل تصنيف ابن الأڪفاني الذي ترك لنا في هذا المجال كتاباً متميزاً بعنوان : إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم .

* أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية ، جامعة باقنة - ١ - الجزائر .

^١ دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة عبد الهادي أبو ريذة ، دار النهضة العربية ، ط ٣ (١٣٧٤/١٩٥٤) ، ص ٣٤ .

أولاً : ابن الأکفاني وکتابه إرشاد القاصد : هو محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري الشهير بابن الأکفاني السنجاري الأصل والمولد ، المصري الدار المتوفى سنة (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) . كان من أشهر علماء القرن الثامن وإلى جانب اشتغاله بالفلسفة كان له اهتمام بالطب إلى أن نبغ فيه بشكل خاص . قال عنه ابن حجر العسقلاني : " ولد بسنجان وطلب العلم ففاق في عدة فنون وأتقن الرياضة والحكمة وصنف فيها التصانيف الكثيرة وكان يحل إقليدس بلا كلفة كأنه تمثل بين عينيه وتقدم في معرفة الطب فكان يصيب حتى يتعجب الحذاق في الفن منه فإنه يأتي إلى المريض بخواص ومفردات بغير كيفيتها فيتناولها فيبراً وكان مع ذلك كله مستحضراً للتواريخ وأخبار الناس وحفظة للأشعار وله في فنون الآداب أيضاً تصانيف " ^١ .

كما يعد ممن اشتغلوا بتصنيف العلوم في الإسلام ، وقد ترك لنا موسوعة مختصرة ونفيسة في هذا المجال جعلها بعنوان : " إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم " في هذا المؤلف يذهب ابن الأکفاني إلى أن الغاية من عملية التصنيف إنما هي عملية معرفية تتمثل في الوصول إلى الحقيقة ، هذا ما نجده يصرح به في فاتحة كتابه إرشاد القاصد ؛ إذ يقول : "... وبعد فإن بنا حاجة إلى تكميل نفوسنا البشرية في قواها النظرية والعملية إذ كان ذلك هو الوسيلة إلى السعادة الأبدية . ولما كان هذا إنما يتم بالعلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه ليُعتقد الحق ويُفعل الخير ، وجب علينا أن نعلم العلم المتكفل بتحقيق الحقائق وما هو إليه كالوسائل ، وما يشتمل على بيان ما يجب أن يقصد من الفضائل ، ويتجنب من الرذائل ، فأردت أن أذكر في هذه الرسالة أنواع العلوم على التفصيل ليتبين منها هذا الغرض ، ويستفاد منها أمور آخر بالعرض " ^٢ .

المتأمل في هذا الكلام يجد أن صاحبه يسعى إلى تحديد الغاية من العملية التصنيفية كما فعل كل من الفارابي وطاش كبرى زادة ؛ إذ أن كلا منهما حاول تحديد الغاية من علم تصنيف العلوم ، واعتبر تحديد

^١ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق : محمد عبد المعيد ضان ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ، الهند ، ط ٢ ، (١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) ج ٥ ، ص ٣ .

^٢ ابن الأکفاني : إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم ، تحقيق عبد المنعم محمد عمر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص ٩١ .

تلك الغاية محاولات لصياغة تعريف اصطلاحى لهذا العلم . ولذلك يجد الدارس لتصنيف العلوم نفسه ملزماً بالوقوف عند الغاية منه التي منها تم استخلاص التعريف الاصطلاحى لتصنيف العلوم .

الملاحظ على الغاية التي حددها ابن الأکفاني هو ربطها بغاية أخلاقية تربوية تتمثل في تحقيق السعادة كهدف أسمى في حياة الإنسان ، ويرى أن سبيل ذلك هو العلم ، وحتى يتاح ذلك لا بد من معرفة أصناف العلوم كما سبق الذكر . وهذا ما التفت إليه محقق كتاب إرشاد القاصد في تقويمه لهذه الموسوعة فقال : تتقدم في كثير من النواحي على غيرها من الموسوعات المختصرة المصنفة الأخرى ، وذلك من عدة نواح :

(١) عنى ابن الأکفاني بالكلام الإنتاج الفكري حتى القرن الثامن الهجري ، وقد صنف في موسوعته العلوم والفنون التي صنفها الفارابي ثم زاد عليها تصنيف الطب والموسيقى .

(٢) استهل ابن الأکفاني موسوعته بمقدمة تعتبر من أحسن ما كتب حتى ذلك العصر عن تطور التربية والتعليم عند المسلمين ، وقد عنى بذكر فضل العلم ووظيفة المعلم وواجباته ، وما يجب أن يتحلى به من فضائل ، وعن المنهج الواجب اتباعه ، وما يجب أن يتحلى به الطالب أثناء تحصيل العلم ، والوسائل التي يستعين بها ، وعن مصنفي الكتب وأهمية الاستعانة بالمصنفات المعتبرة . . . إلخ .

(٣) لا شك أن ابن الأکفاني استفاد من موسوعة الفارابي إحصاء العلوم كما استفاد غيره من مؤلفي الموسوعات المختصرة المصنفة ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أن ابن الأکفاني كان له منهجه الخاص ، ورأيه في بيان مراتب العلوم وفي تقاسيمها وأنه خالف في ذلك بعض آراء الفارابي .

(٤) أوجب ابن الأکفاني على نفسه إدخال تنظيم جديد على منهاجه في كتابة موسوعته لم يسبقه إليه أحد من مؤلفي الموسوعات المختصرة ، وهو إضافته بعد انتهاء الكلام على كل علم ثلاثة مراجع : الأول كتاب مبسوط ، والثاني كتاب متوسط ، والثالث كتاب مختصر . وبذلك قدم للعلماء والمنتفعين قائمة كبيرة مختارة من بين أحسن المراجع التي أبدعتها قرائح العلماء في مختلف العلوم والفنون حتى عصره^١ .

ونتيجة هذه الخصائص التي تميز بها كتاب " إرشاد القاصد "

^١ انظر الدراسة التي أنجزها المحقق على إرشاد القاصد ، ص ٤٦ .

كان محل إعجاب الكثير من العلماء ، والكثير منهم اعتمد عليه في إنجازه لعمل تصنيفي آخر . هذا ما يؤكد محقق كتاب إرشاد القاصد في قوله بأن ابن الأكفاني أضاف في عمله التصنيفي : " قائمة مختارة من الإنتاج الفكري الإسلامي مع بيان قيمة الكثير منها ، وبذلك يكون قد أسهم مع ابن النديم في تقديم الببليوغرافيا التي خلّدت الإنتاج الفكري الإسلامي ، وأصبح كتاب " إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم " هو المكمل للجهود الكبيرة التي بذلها ابن النديم عندما أخرج كتاب الفهرست في القرن الرابع الهجري " ^١ .

كما نجد التنويه بهذه المكانة وهذه الأهمية العلمية لهذا الكتاب عند كبار الذين اشتغلوا بتصنيف العلوم . فمثلاً حاجي خليفة في موسوعته " كشف الظنون بأسماء الكتب والفنون " كان يقول عن إرشاد القاصد لابن الأكفاني : " مختصر . . . ذكر فيه أنواع العلوم وأصنافها وهو مأخذ مفتاح السعادة " ^٢ .

كما اعتبر الأساس الذي اعتمد عليه طاش كبرى زادة في كتابه مفتاح السعادة ، هذا ما أشار إليه الدكتور عثمان أمين في تعليقه على كتاب إحصاء العلوم للفارابي فقال : " إن التعريف العلمي الذي كتبه ابن الأكفاني في إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد موجود بنصه في مفتاح السعادة " ^٣ ، بل نجد الاعتراف بالسبق الذي حققه ابن الأكفاني من طرف طاش كبرى زادة نفسه إذ يقول : " ولعل الكتاب الذي يشبه كتابنا في معظم الوجوه هو كتاب " إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد " ^٤ .

ومن الذين أخذوا عن ابن الأكفاني الفيروزآبادي في كتابه الشهير : " بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز " وذلك عند حديثه عن المسائل التالية : فضل العلم وأنواعه ومراتبه ، شروط التعلم

^١ انظر الدراسة التي أنجزها محقق كتاب إرشاد القاصد .

^٢ حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون / طبعة وزارة المعارف التركية ، ج ١ ، ص ٦٦ .

^٣ أنظر تعليق عثمان أمين على إحصاء العلوم للفارابي ، نقلاً عن الدراسة التي أنجزها محقق إرشاد القاصد ، ص ٥٣ .

^٤ انظر مقدمة كتاب مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة . طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

والتعليم ، القول في حصر العلوم ^١ . ومن المتأخرين الذين اعتمدوا على ابن الأكفاني العلامة محمد فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين إذ يقول : " المطلع على ما دونه العرب من العلوم يدهش من توسعهم في أسمائها وموضوعاتها ، فقد أعد لهم العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري في رسالته : " إرشاد القاصد " ستين علماً . . . ونحن لا يسعنا في هذا الفصل إغفال ذكر أنواع العلوم التي كان المسلمون أيام عظمتهم المدنية ، فلنأت على ذكرها مستقاة من رسالة العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري " ^٢ .

من خلال الإشارة إلى هذه الكتابات التصنيفية وعلى ما لها من أهمية في تاريخ العلوم عند المسلمين نجدها جميعاً تشيد بتصنيف ابن الأكفاني ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن هذا الجهد التصنيفي له مكانة مرموقة بين سائر كتب المسلمين التي كتبت في مجال علم تصنيف العلوم ، وقد يكون الذي بوأه هذه المكانة - بالإضافة إلى جهد صاحبه - ما أتيج له من الاطلاع على جهد سابقه فقد كان متأخراً إذ عاش في القرن الثامن ، وكانت وفاته سنة ٧٤٩هـ الموافق لـ ١٣٤٨م . وهي فترة جعلته بلا شك يقف على تصنيفات : الكندي والفارابي وابن سينا والخوارزمي وإخوان الصفا وغيرهم .

ثانياً : منهجه في التصنيف . صنف ابن الأكفاني العلوم إلى صنفين كبيرين تدرج تحتها سائر أصناف العلوم وهما : ما يكون مقصوداً لذاته ، وما لا يكون مقصوداً لذاته .

(١) ما يكون مقصوداً لذاته أو العلوم الحكمية : ويتضمن :

(١،١) : العلوم الحكمية النظرية وهي : حصول الاعتقادات

اليقينية في معرفة الموجودات وأحوالها وهي :

(أ) علم أعلى وهو العلم الإلهي ، ويتضمن :

- النظر في الأمور العامة مثل : الوجود والماهية ، والوحدة والكثرة ، والوحد والامكان ، والقدم والحدوث ، والأسباب والمسببات .
- النظر في مبادئ العلوم .
- النظر في إثبات وجود الإله الحق الواحد .

^١ نقلاً عن محقق كتاب إرشاد القاصد ، ص ٥٥ .

^٢ محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ، مادة علم .

- النظر في إثبات الجواهر المجردة .
- أحوال النفوس البشرية بعد مفارقتها للهياكل الإنسانية .
- علم النواميس أو العلوم الشرعية ، وهي : علم القراءات ، علم رواية الحديث ، علم تفسير القرآن ، علم دراية الحديث ، علم أصول الدين ، علم أصول الفقه ، علم الجدل ، علم الفقه .
- ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن الأكفاني أضاف إلى هذا الصنف رافداً إسلامياً وهو علم الفرق ، ولم يقتصر على الفرق الإسلامية فقط بل ذكر الفرق اليهودية وفرق النصرانية أيضاً . وهو بذلك يتميز عن غيره كابن حزم مثلاً فعلى الرغم من أنه ممن ألفوا في الفرق وترك مؤلفه الضخم الفصل في الملل والأهواء والنحل ، وممن ساهموا في تصنيف العلوم ، إلا أنه لم يذكر الفرق كعلم من العلوم عند المسلمين .
- (ب) علم أوسط وهو العلم الرياضي ، ويتضمن :
 - الهندسة وتشتمل على : علم عقود الأبنية ، علم المناظر ، علم المرايا المحرقة ، علم مراكز الأثقال ، علم المساحة ، علم إنباط المياه ، علم جر الأثقال ، علم البنكومات ، علم الآلات الحربية ، علم الآلات الروحانية .
 - الهيئة وعلم النجوم ، وتتضمن : علم الزيجات والتقويم ، علم المواقيت ، علم الأرصاد ، علم تسطيح الكرة ، علم الآلات الظلية .
 - علم العدد ، ويتضمن : علم الحساب المفتوح ، علم حساب التخت والميل ، علم الجبر والمقابلة ، علم حساب الخطأين ، علم حساب الدور والوصايا ، علم حساب الدرهم والدينار .
 - الموسيقى ، وتتضمن : المبادئ وكيفية استنباطها ، النغمات وأحوالها ، الإيقاع ، تأليف الألحان ، إيجاد الآلات الموسيقية .
- (ج) علم أدنى وهو العلم الطبيعي ، ويتضمن :
 - السماع الطبيعي .
 - السماء والعالم .
 - الكون والفساد .
 - الآثار العلوية .
 - المعادن .
 - النبات .

• الحيوان .

• الحس والمحسوس .

يذكر ابن الكفاني أن هذا التصنيف للعلم الطبيعي عرف مع أرسطو ، وأن هذه الأصناف تتفرع عنها عشرة أصناف أخرى هي : علم الطب ، علم البيطرة ، علم البيزرة ، علم الفراسة ، علم تعبير الرؤيا ، علم أحكام النجوم ، علم السحر ، علم الطلسمات ، علم السيميا ، علم الكيمياء . (١،٢) : العلوم الحكمية العملية وهي : تزكية النفس باقتناء الفضائل وهي :

- السياسة وهي : " علم يعلم منه أنواع الرياسات والاجتماعات المدنية وأحوالها وموضوعه معرفة الأحكام المراتب المدنية وأحكامها " .
- الأخلاق . ويعرفه ابن الأكفاني بأنه : " علم يعلم منه أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها ، وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها " .
- علم تدبير المنزل . وقد قال عنه ابن الأكفاني : " وهو علم يعلم منه الأحوال المشتركة بين الإنسان وزوجه وولده وخدمه ، ووجه الصواب فيها وموضوعه أحوال الأهل والخدم " .

(٢) ما لا يكون مقصودا لذاته ويشتمل على ما يلي :

(٢،١) آلة المعاني : وتتضمن :

- المنطق . ويتضمن المنطق : المدخل ، العبارة ، التحليل بالعكس ، التحليل البرهاني ، التحليل الشعري ، التحليل الخطابي ، المواضيع الجدلية ، المقولات ، نقض شبه الموهين .

(٢،٢) آلة لما يتوصل به من المعاني من اللفظ والخط وتتضمن :

- الأدب . ويندرج تحت الأدب : علم اللغة ، علم التصريف ، علم المعاني ، علم البيان ، علم البديع ، علم العروض ، علم القوافي ، علم النحو ، علم قوانين الكتابة ، علم قوانين القراءة^١ .

هذا هو التصنيف الذي وضعه ابن الأكفاني للعلوم في الإسلام ويبدو أنه متميز جدا إذا ما قورن بغيره ممن اهتموا بعلم تصنيف العلوم وكتبوا في هذا الباب من أبواب المعرفة .

ثالثا : تميز تصنيف ابن الأكفاني . من خلال عرض تصنيف

^١ ابن الأكفاني : إرشاد القاصد ، ص ١٠٧ وما بعدها .

العلوم عند ابن الأکفاني يمكن تسجيل التميز الذي يلاحظ على هذا التصنيف والذي يتمثل فيما يلي :

(١) يبدو تصنيف ابن الأکفاني أكثر شموليةً وإحاطةً من التصنيفات الأخرى ؛ فقد أورد بعض الأصناف التي لم يذكرها غيره مثل : الطب والموسيقى ؛ فعلى الرغم من أن الفارابي كان سابقاً في هذا المجال ، وعلى الرغم من وجودهما في زمن الفارابي واشتغاله بالموسيقى لكنه لم يذكرهما ، مما يدل على أن ابن الأکفاني قد استدرك على سابقيه من أمثال الفارابي .

(٢) يذهب بعض الذين كتبوا في تصنيف العلوم عند المسلمين إلى أن هذا العلم كانت له غاية تربوية تعليمية ، وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد المجيد النجار بقوله : " ليس لاستحدثاته في هذا الإطار من قبل المسلمين وفي مجال ثقافي إسلامي من غاية سوى أن يكون عاملاً على بناء فكر إسلامي متقوم بحقيقة العقيدة الإسلامية " ^١ . ومن نماذج التصنيفات التي كانت تصبو إلى هذه الغاية وساهمت في تحقيقها تصنيف ابن الأکفاني وهذا ما كان قد صرح به فقال : " . . . وبعد فإن بنا حاجة إلى تكميل نفوسنا البشرية في قواها النظرية والعملية ؛ إذ كان ذلك هو الوسيلة إلى السعادة الأبدية " ^٢ . فهذا وجه من وجوه تميز تصنيف ابن الأکفاني .

(٣) لقد وضع ابن الأکفاني لتحقيق هذه الغاية عدة آليات رآها كفيلة بتحقيق هذه الغاية التربوية ، وهذه الآليات هي :

• ذكر أنواع العلوم وبيان مراتبها ؛ ففي مقدمة كتابه إرشاد القاصد أشار ابن الأکفاني إلى مراتب العلوم وتباينها في الشرف والرتبة ، فقال : " والعلوم مع اشتراكها في الشرف تتفاوت فيه ؛ فمنها ما هو بحسب الموضوع كالطب فإن موضوعه بدن الإنسان ولا خفاء بشرفه ، ومنها ما هو بحسب الغاية كعلم الأخلاق فإن غايته معرفة الفضائل الإنسانية ونعمة الفضيلة ، ومنها ما هو بحسب الحاجة إليه كالفقه ؛ فإن الحاجة ماسة . ومنها ما هو بحسب وثاقة الحجج كالعلوم الرياضية فإنها برهانية يقينية ، ومن العلوم ما يقوى شرفه باجتماع

^١ عبد المجيد النجار : مباحث في منهجية الفكر الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ (١٩٩٢) ، ص ٤١ .

^٢ ابن الأکفاني : إرشاد القاصد ، ص ٩١ .

هذه الاعتبارات أو أكثرها كالعلم الإلهي فإن موضوعه شريف وغايته فاضلة والحاجة إليه مهمة " ^١ .

هذا وصف عام للعلوم من جهة مكانتها وحاجة الإنسان إليها ودورها في تحقيق السعادة للإنسان ، وبإدراك ذلك التفاوت يؤخذ الأفضل فتحصل السعادة التي هي الهدف المتوخى .

- يذكر ابن الأکفاني عقب تحديده لكل صنف من أصناف العلوم أهم الكتب التي وضعت في ذلك العلم ، وكأنه يزود القارئ بقائمة ببيوغرافية في كل علم من العلوم بأهم وأشهر الكتب التي وضعت فيه . فمثلاً عند ذكره لعلم أصول الدين ذكر من كتبه المختصرة كتاب قواعد العقائد لنصير الدين الطوسي ، ولباب الأربعين للقاضي جمال الدين بن واصل ، ومن الكتب المتوسطة كتاب المحصل للإمام فخر الدين الرازي ، وكتاب لباب الأربعين للأرموي . ومن الكتب المبسوبة نهاية العقول للإمام الرازي ، والصحائف للسمرقندي ^٢ . وهكذا فعل عند ذكره لكل علم على حده .

- اعتماد الكتاب ؛ لما كانت الغاية من التصنيف غايةً تعليميةً يذكر ابن الأکفاني أن للمجتهدين في ذلك طرقاً : فمنهم من اعتمد البحث والنظر ، ومنهم من اعتمد تصفية النفس بالرياضة ، ومنهم من جمع بينهما ، ولكنه يرجح الاعتماد على الكتاب فكان يشيد بفائده وأوجب على كل من تعلم علماً نافعاً أن يثبت في كتب لمن يأتي بعده ما عثر عليه بفكره واستنبطه بممارسته وتجاربه ممن لم يسبق إليه كما فعل الذين من قبله ^٣ .

مما تقدم يمكن القول أن جهد ابن الأکفاني في تصنيف العلوم كان جهداً متميزاً ؛ فبالإضافة إلى كونه من التصنيفات الأصلية كان تصنيفاً انطوى على أبعاد مهمة ؛ كالبعد الشمولي فكان تصنيفاً شاملاً إذا ما قورن بغيره من التصنيفات ، ومن جهة ثانية أقامه على غاية جليلة وهي غاية أخلاقية تربوية ، خلاف بعض التصنيفات التي كانت لغرض فلسفي بحث .

^١ المصدر نفسه ، ص ٩٤ - ٩٥ .

^٢ المصدر نفسه ، ص ١٦١ .

^٣ المصدر نفسه ص ١٩٧ وما بعدها

الاستشراق : أهدافه وآثاره

إعداد : د / أبو سحبان روح القدس الندوي *

اختلفوا في تعريف الاستشراق على أقوال ، ومن أجله تباينت وجهات النظر حول الاستشراق بين مؤيد ومعارض ... فالاستشراق هو : " الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام " ^١ .

" بدأ الاستشراق في الأندلس (Spain) في القرن السابع الهجري ، حين اشتدت حملة الصليبيين الأسبان على المسلمين ... فدعا الفونس (Al-Fonsox of Castille) ملك قشتالة ميشيل سكوت (Michael Scott) ليقوم بالبحث في علوم المسلمين وحضارتهم ، فجمع سكوت (Scott) طائفة من الرهبان في بعض الأديرة بالقرب من مدينة طليطلة ، وشرعوا يترجمون بعض الكتب من اللغة العربية إلى لغة الفرنجة ، ثم قدمها سكوت (Scott) لملك صقلية الذي أمر باستنساخ نسخ منها وبعث بها هدية إلى جامعة باريس " ^٢ .

" وكذلك قام رئيس أساقفة طليطلة ريمون لول (Raymond Lull) بنشاط كبير في الترجمة ، ومع مرور الزمن توسع الأوروبيون بالنقل والترجمة في مختلف الفنون والعلوم من هيئة وطب وهندسة وفلك وغيرها ، وبعد اختراع الطباعة أنشئت في أوروبا مطابع عربية لطبع عدد من الكتب

* قسم الاختصاص في علوم الحديث الشريف بدار العلوم لندوة العلماء ، لكناؤ (الهند) .

^١ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص ١٨ ، لزقزوق ، د . محمود حمدي ، ط أولى ١٤٠٤ هـ ، (نشرة " الأمة " القطرية والكتاب الخامس) .

^٢ أساليب الغزو الفكري ، ص ١٩ ، دار الاعتصام القاهرة ، ط الثانية ١٩٧٨ م . تأليف : د . علي محمد جريشة وأستاذي محمد شريف الزبيقي .

التي كانت تُدرس في المدارس والجامعات الأوروبية " ^١ .

" ولم يكن عمل المستشرقين منفصلاً عن عمل المبشرين ، بل كانت مهمة كل من الطائفتين تدخل في الأخرى " ^٢ .

وكان فشل الصليبيين في حملاتهم المتوالية على الشرق الإسلامي دافعاً للمزيد من الاهتمام بالثقافة الإسلامية ، وقد ظهرت أخيراً وثيقة خطيرة تلقي الضوء على تحول الصليبيين من الغزو العسكري إلى الغزو الفكري " ^٣ .

" وهذه الوثيقة تتضمن وصية القديس لويس (Saint Louis) ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثامنة التي انتهت بالفشل والهزيمة ووقوع (لويس) في أسر المصريين في مدينة المنصورة ، وقد بذل الملك لويس فدية عظيمة للخلاص من الأسر " ^٤ .

" وبعد أن عاد (لويس) إلى فرنسا أيقن أنه لا سبيل إلى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ، لأن تدينهم بالإسلام يدفعهم للمقاومة والجهد وبذل النفس في سبيل الله لحماية ديار الإسلام وصون الحرمات والأعراض به ، والمسلمون قادرون دوماً للانطلاق من عقيدتهم إلى الجهاد ودحر الغزاة " ^٥ .

" وأنه لا بد من سبيل آخر ، وهو تحويل التفكير الإسلامي وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري ، بأن يقوم العلماء الأوروبيون بدراسة الحضارة الإسلامية ليأخذوا منها السلاح الجديد الذي يغزون به (الفكر) الإسلامي " ^٦ .

" وهكذا تحولت المعركة من ميدان السلاح إلى معركة في ميدان العقيدة والفكر بهدف تزييف عقيدة المسلمين الراسخة التي تحمل طابع الجهاد وتدفع المؤمنين إلى الاستشهاد " ^٧ .

^١ المرجع نفسه .

^٢ أيضاً .

^٣ أيضاً .

^٤ أيضاً .

^٥ أيضاً .

^٦ أيضاً .

^٧ المرجع نفسه ، ص ١٩ - ٢٠ (نقلاً عن كتاب " الإسلام في وجه التعريب " ، تأليف : أنور الجندي (ص ٧ - ٨) .

"ولقد سار الأوروبيون في طريق تنفيذ وصية القديس لويس (Louis) في تزييف العقيدة الإسلامية وامتصاص ما فيها من قوة وجهاد وإيمان عن طريق التفرقة بين العقيدة والشريعة ، وتصوير الإسلام بصورة الدين الذي يبذل غاية همه في العبادة كالمسيحية ، إلى أن وصلوا إلى الفصل بين الدين والدولة ، وفقد المسلمون ذلك السر الخطير الكامن في أصالة عقيدتهم وجوهر دينهم" ^١ .

"ويرى كثير من الباحثين أن الاستشراق تولّد من الاستعمار والتبشير" ^٢ .

"فالاستعمار : يرى في المفهوم الإسلامي السليم ما يعطي المجتمع الإسلامي قوة تحول بينه وبين سيطرة الاستعمار ، فعمل المستشرقون على تقويض العقيدة الإسلامية ، وإحلال مفاهيم تحل الصداقة بين الدول الغالبة والمغلوبة ... محلّها ، تحت اسم الحضارة ، أو العالمية ، أو وحدة الثقافة والفكر البشري" ^٣ .

"وأما التبشير فإنه يستهدف الحيلولة دون توسع الإسلام وانتشاره ، وعدم منافسته للمسيحية في البلاد التي تحاول القيام بالتبشير ونشر المسيحية فيها" ^٤ .

والخطر الأكبر في نظر المبشرين هو في وصول مفاهيم الإسلام الصحيحة إلى عالم الغرب نفسه" ^٥ .

"ومما يُذكر أن المسلمين لما فتحوا مدينة القسطنطينية هبّ رجال الكنيسة وقد هالهم الخطب العظيم ، فأخذوا في الافتراء ، والتشنيع على الإسلام وتشويه أحكامه الإلهية العادلة ، وكان الدافع لهم في هذه الحملة الحيلولة بين رعاياهم الذين أقبلوا على الدخول في دين الله أفواجا ، ليصدّوهم عن الإسلام الذي يبيح تعدد الزوجات والطلاق" ^٦ .

وجاءت الصهيونية فدخلت ميدان الاستشراق لتحول دون اجتماع

^١ المرجع نفسه الأنف ، ص ٢٠ .

^٢ المرجع نفسه .

^٣ أيضاً .

^٤ أيضاً .

^٥ أيضاً .

^٦ أيضاً .

المسلمين في وحدة تقاوم اليهودية العالمية ، وتواجه دولة اليهود الباغية (إسرائيل) ، والمستشرقون اليهود يعملون في هذا المجال " ^١ .

" وفي مطلع القرن الثالث عشر الهجري (أواخر القرن الثامن عشر الميلادي) عمد المستشرقون إلى تغيير أساليبهم وأرادوا أن يظهروا بمظهر جديد هو : ما زعموه من تحرير الاستشراق من الأغراض التبشيرية ، والاتجاه به وجهة البحث العلمي البحث " ^٢ .

" فأنشئت كليات لتدريس اللغات الشرقية في عواصم أوروبا وغيرها ، وظهرت فيها أقسام خاصة لدراسة اللغة العربية وبعض اللغات الإسلامية كالفارسية والتركية والأردية ، وكان الغرض الأول منها تزويد السلطات الاستعمارية بخبراء في الشؤون الإسلامية " ^٣ .

" ثم أخذ الطلاب المسلمون يؤمنون هذه الكليات الأوروبية للدراسة فيها ، وبذلك تأثر الفكر الإسلامي بما يلقيه المستشرقون في أذهان هؤلاء المبعوثين من أبناء المسلمين " ^٤ .

" ثم تسلل المستشرقون إلى الدوائر العلمية والجامعات في الدول الإسلامية ، بل إلى المجامع العلمية في القاهرة ودمشق وبغداد ، وقامت المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية في الغرب بما كان يقوم به الملوك في الماضي من الإغداق على المستشرقين ، وتقديم المنح والمعونات لهم " ^٥ .

" وقد أنشأت الدول الاستعمارية عدة مؤسسات في البلاد الإسلامية - في مصر ، وفي لبنان ، وفي سورية ، وغيرها ، وهكذا في كل الأقطار الإسلامية - التي خضعت لنفوذها لخدمة الاستشراق ظاهرياً ، وكان هدفها الحقيقي خدمة الاستعمار والتبشير الكاثوليكي والبروتستاني " ^٦ .

أهداف الاستشراق :

أولاً : " الحيلولة بين الشعوب النصرانية وبين الإسلام ، فقد عمل المستشرقون على تشويه الإسلام وحجب محاسنه لإقناع قومهم بعدم

^١ أيضاً .

^٢ المرجع السابق ، ص ٢١ .

^٣ نفسه .

^٤ نفسه .

^٥ نفسه .

^٦ نفسه مع تلخيص يسير .

صلاحيته لهم نظام حياة ، ولعل هذا هو أخطر الجوانب التي قام لأجلها الاستشراق والتبشير ، وذلك في أعقاب الحروب الصليبية وعودة المحاربين إلى أوروبا ، وقد عمل رجال الكنيسة إلى إخراس الألسنة المنصفة ، وحاولوا ترجمة القرآن لتزييف مفاهيمه وانتقاصها " ^١ .

" وقد استغل الاستشراق كراهية الأوروبيين للإسلام بعد التوسع العثماني في أوروبا وما صحبه من تعصب وحروب استمرت عدة قرون ، فعمل المستشرقون على تعميق الكراهية والأحقاد في نفوس الأوروبيين وتغذيتها بالشبهات والأباطيل بهدف حجب الإسلام عن أوروبا والحيلولة دون نفاذه إليها " ^٢ ثانياً : " تأييد الغزو الاستعماري لبلاد المسلمين والعمل لتحطيم المقاومة الإسلامية ، بتأويل الجهاد وصرف أنظار المسلمين إلى الدعة والقهود عن الجهاد في سبيل الله ومدافعة الغزاة بالاشتغال بالعبادة والزهد وتسميتها بالجهاد الأكبر " ^٣ .

" وتحطيم وحدة المسلمين وتمزيق الدولة الإسلامية ، وعزل الشريعة الإسلامية عن التطبيق في المجتمع الإسلامي وإحلال الأنظمة القانونية والاقتصادية والسياسية والتربوية لتحل محل الإسلام بالقوة " ^٤ . ثالثاً : " فصل المسلمين عن جذورهم الثابتة الأصيلة ، بتشويه تلك الأصول ، وعزلها عن مصادرها ، وهدم المقومات الأساسية للكيان الفردي والاجتماعي والنفسي والعقلي للمسلمين ، ومن شأن هذا أن يفتح الباب إلى الاستسلام أمام الاستعمار وثقافته وفكره ، والتأثير في نفوس المسلمين وزحزحة عقائدهم بما يفتح للتبشير المسيحي طريقاً إلى تحويل بعض ضعاف العقيدة إلى ملاحدة وأتباع " ^٥ .

" والخلاصة فقد كان المستشرقون طلائع للمبشرين يمهّدون السبيل أمامهم لتشكيك المسلمين في عقائدهم ، ويفتحون أمام دعاة النصرانية السبيل للطعن في الإسلام ونبيه بأنواع شتى من الشعوذة العلمية

^١ نفسه ، ص ٢١ - ٢٢ .

^٢ المصدر نفسه ، ٢٢ .

^٣ نفسه .

^٤ نفسه .

^٥ نفسه .

باسم البحث والاستنتاج التحليلي " ^١ .

"وتبدو خطورة الاستشراق في آثاره الخطيرة التي يفرضها المستشرقون على مناهج التعليم والثقافة والفكر في العالم الإسلامي ، وقد حرص المستشرقون على كسب الأنصار واستخدام الأتباع لترديد مفترياتهم على الإسلام ، وافتعال معارك حول عقائده وآدابه ومختلف أحكامه لتعميق المفاهيم التي يدون فرضها ، وترسيخها في الأذهان ، وتوسيع دائرة الانتفاع بها " ^٢ .

"ولقد كان طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣ م) في مقدمة الذين أعلنوا الإعجاب والتقدير لمناهج المستشرقين ، ويُعتبر حامل الدفاع عنهم وعن أهوائهم " ^٣ .

ومثل طه حسين في هذه التبعية للمستشرقين : سلامة موسى ، وحسين فوزي ، وزكي نجيب محمود ، ومحمود عزمي ، وعلي عبد الرزاق ، وغيرهم .

ولقد لقحت مناهج المستشرقين في البحث والنقد العلمي قرائح كثير من تلاميذ المستشرقين فنهجوا منهجهم وأخذوا طريقتهم فيما حاولوا من دراسات ، وخاصة في مجال الجامعة والثقافة والصحافة ، وحملوا نفس الروح التي يحملها أساتذتهم في خصومة الإسلام ، وكانوا أشد قسوة على أهلهم من الغربيين " ^٤ .

آثار الاستشراق :

" كان الاستشراق وراء كل شبهة أو دعوة خطيرة أحدثت تحولاً في المجتمع الإسلامي في العصر الحديث ، فقد كان المستشرقون يُلقون الشبهة أو الدعوة ، ثم يتبعهم الكتاب و (المفكرون) الذين يكتبون باللغة العربية من أهل التبعية والتغريب والشعوبية ... " ^٥ .

" يعمل المستشرقون على إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها

^١ نفسه .

^٢ نفسه ، ص ٢٢ - ٢٣ .

^٣ نفسه ، ص ٢٣ مع تلخيص يسير .

^٤ المرجع السابق ، ص ٢٤ مع تلخيص .

^٥ المرجع نفسه .

حسب أهوائهم ، والتحكم فيما يرفضونه أو يقبلونه من النصوص ، وكثيراً ما يحرفون النص تحريفاً مقصوداً ، ويقعون في سوء الفهم - وعن عمد أحياناً - في معنى النص حين لا يجدون مجالاً للتحريف " ^١ .

"يتحكم المستشرقون في المصادر التي يختارونها ، فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث النبوي ، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه ، ويصححون ما ينقله الدميري (٧٤٢ - ٨٠٨ هـ) في كتابه (الحيوان) ويكذبون ما يرويه الإمام مالك في (الموطأ) ... " ^٢ .

"يجمع المستشرقون الشبهات المختلفة ويؤلفون بينها لإعطائها صورةً كاملةً " ^٣ .

وقد حرص على التنويه بشأن " القرامطة " وإظهارهم بمظهر طلاب العدل والإصلاح ... وأنهم دعاة حق حين امتلكوا زمام الحكم في القرن الرابع الهجري ، بل انكشف باطلهم وزيفهم وظهرت حقيقتهم صنائع لليهود انقضوا على الدولة الإسلامية بالتآمر والتعاون مع أعداء المسلمين وخصومهم " ^٤ .

"عمل المستشرقون على إحياء التراث الباطني المجوسي والغنوصي مستهدفين تحطيم أصالة الفكر الإسلامي ، ويبدو هذا واضحاً في تركيزهم على إحياء كل المخطوطات التي تحمل هذه السموم ، وخاصة ما يتصل بالإلحاد والإباحية ، وما يتصل بوحدة الوجود والحلول والاتحاد ، والمجون ... أمثال شعر بشار بن برد ، وأبي نواس ، وكتب الحلاج ، وابن عربي ، وابن سبعين ، وكتب غلاة الرافضة والإسماعيلية والفاطميين " ^٥ .

"ولا ريب أن أخطر آثار الاستشراق هو اعتبار كتب المستشرقين وبحوثهم مراجع أساسية في التاريخ واللغة والسيرة والفقه والعقائد وغير ذلك ، وخاصة في الجامعات والمعاهد العالية أو في دراسات المبعوثين إلى الجامعات الغربية في أوروبا وأمريكا ، الذين يقعون دائماً تحت سيطرة

^١ نفسه .

^٢ نفسه ، ص ٢٤ - ٢٥ .

^٣ فيما سبق ، ص ٢٥ .

^٤ أيضاً .

^٥ فيما سبق ، ص ٢٥ - ٢٦ .

الاستشراق والأساتذة اليهود والنصارى المتعصبين ، ثم يعودون إلى بلادهم فيحتلون مناصب التوجيه الثقافي و التعليمي ، ويفرضون ما تلقوه من الغرب من سموم باسم التجديد وحرية البحث " ^١ .

"وقد عملوا على نشر الموسوعات (دوائر المعارف) والقواميس لتكون مراجع سهلة للباحثين ، وملؤها بالسموم والشبهات مثل : دائرة المعارف الإسلامية : إعداد وتحرير : إبراهيم زكي خورشيد ، أحمد الشنتاوي ، د . عبد الحميد يونس .

المنجد في اللغة والأعلام : تأليف الأب لويس معلوف اليسوعي . الموسوعة العربية الميسرة : مجلس المديرين والخبراء والمشاركين . ولهذا ينبغي على من يود الرجوع إلى هذه المصادر أن يكون على حذر تام ، وأن يتبها لما بين سطورها من مغالطات أو تشويه أو تحريف في النقل ، على أن روح مؤلفيها في الحق على الإسلام لا تخفى على المطالع الحصيف " ^٢ وقد تناول الباحثون القدامى والمحدثون دراسة الاستشراق والمستشرقين من المنصفين والمحايدين والحادقين ومواقفهم السلبية والإيجابية على السواء .

وقد عالج الأستاذان الجليلان : د . علي محمد جريشة (١٩٣٥ - ٢٠١١م) وشيخي محمد شريف الزبيق (١٩٠٠ - ١٩٠٠) ظاهرة الاستشراق في كتابه الطائر الصيت " أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي " وأنهيا هذه القضية عن " المستشرقين المعتدلين " مع ضرب الأمثلة حيث قالوا :

" لا نكران أن طائفة من المستشرقين اتسموا بالاعتدال والإنصاف ، على تفاوت فيما بينهم ، فمنهم من أخطأ وأصاب ، ومنهم من انتهى به البحث إلى حر النزيه إلى الإيمان والإسلام " ^٣ .

واعترف الأستاذ أبو الحسن علي الندوي بجهود المستشرقين في إحياء التراث ونشره قائلاً :

^١ أيضاً ، ص ٢٧ .

^٢ أيضاً .

^٣ المرجع السابق ، ص ٢٨ .

" أن عدداً من المستشرقين كرّسوا حياتهم وطاقاتهم على دراسة العلوم الإسلامية وتبّتوا موضوع الشرقيات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسية أو اقتصادية أو دينية ، بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم وبذلوا فيه جهوداً ضخمة " ^١ .

وأضاف قائلاً : " ويكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها ، وبفضل جهودهم برز كثير من نواذر العلم والمعارف التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة " ^٢ .
ثم أردف عقب ذلك ذكر أمثلة من أعلام المستشرقين وجهودهم في مجال التأليف والتحقيق والنشر والترجمة ^٣ .

أما الدكتور محمود الطناحي (١٩٣٥ - ١٩٩٩ م) فاعتنى بإبراز جهود المستشرقين الإيجابية عبر الزمن بعنوان : " جهود المستشرقين في نشر التراث " في كتابه " مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي " (ص : ٢٠٦ - ٢٧٢) معتمداً في تزويد المعلومات على مرجعين مهمين : أولهما : " الأعلام " لخير الدين الزركلي (ت ١٩٧٦ م) وهو : معجم تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، في عشرة أجزاء في خمسة مجلدات .

والآخر : المستشرقون (١ - ٣) لنجيب العقيقي (١٩١٦ - ١٩٨١ م) وهو أديب وكاتب نصراني من أهل لبنان ، ويُعتبر كتابه من أوثق ما كتب عن هذا الموضوع بالعربية ... ترجم له أحمد علاونة في " ذيل الأعلام " للزركلي (ص : ٢١٨ ، ط : دار المنارة ، جدة ١٩٩٨ م) .

وقد انتقلت هاتيك المعلومات المتعلقة بجهود المستشرقين في اعتنائهم بنشر التراث تهذيباً وتتميقاً مع المحافظة على دقة النقل والانتقاء وقابلته مع الشباب الأذكياء ، كي لا يندأ أمر يجدر بالذكر ، وذُيِّلت عقب الأعلام تسميتهم بالإنجليزية ، كي لا يقع خطأ أو تصحيف في القراءة والأداء ^٤ .

^١ الإسلام والمستشرقون ، ص ١١ ، ط الثالثة بلكنائ ٢٠١٨ م .

^٢ نفسه ، ص ١١ .

^٣ راجع المرجع نفسه ، ص ١١ - ١٣ .

^٤ ك .

من صور الالتفات في القرآن الكريم : دراسة بلاغية نحوية

(الحلقة الثالثة الأخيرة)

الأستاذ أيمن ياسين العمر*

الالتفات في الأعداد :

ويتمثل في الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين أو الجمع ومن خطاب الجمع إلى الواحد . ومن ذلك :

الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين ، والشاهد قوله تعالى : (قَالُوا أَجِئْنَا لَتُلْفَتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ) [يونس : ٧٨] ، إذ انتقل في الخطاب من الضمير في (أَجِئْنَا) ، وهو التاء المتحركة الدالة على المفرد إلى المثنى في (لَكُمَا) ، والسر البلاغي هنا التوبيخ والإنكار .

الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع كقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) [الطلاق : ١] . الالتفات هنا في الانتقال من خطاب المفرد وهو (النَّبِيُّ) إلى خطاب الجمع (طَلَّقْتُمُ) الدال عليه ميم الجمع . والسر البلاغي هنا يتمثل في التعظيم ، وذلك في اشتغال الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) ولأمة من بعده^١ .

الالتفات من خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد ، كقوله تعالى : (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَىٰ) [طه : ٤٩] . ومنه قوله تعالى : (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ) [طه : ١١٧] .

انتقل في الآيتين السابقتين من خطاب المثنى إلى خطاب المفرد والسائل في الآية هو فرعون ، والمجاوب هو سيدنا موسى عليه السلام . ومما سبق يتبين لنا بعض أسرار الالتفات البلاغية ، ومنها : التحريض على القيام بالفعل أو بقصد العناية والاهتمام بالمخاطب ، أو التأكيد ، أو التعظيم ، والتفخيم ، أو التعجب ، أو التوجيه ، أو التوبيخ والإنكار ، إضافة إلى تجديد نشاط حال السامع والمتكلم بعيداً عن

* جامعة الزيتونة الدولية - كلية الدراسات العليا ، aymanalmr05@gmail.com

^١ الالتفات في البلاغة العربية وبعض أسرار البلاغية ، د . عبد الرحمن قحطان .

السَّام والضجر .

آراء المحدثين في الالتفات :

من المعروف أنَّ الالتفات أسلوب بلاغي كان معروفاً عند العرب في الجاهلية ، ولكنه لم يكن يُعرف بهذا الاسم ، ولعلَّ أول من أطلق عليه هذا الاسم الأصمعي ، ولكن دون أن يذكر له تعريفاً ، فقد روى العسكري قال : أخبرنا أبو محمد قال : أخبرني محمد بن يحيى الصولي : قال : قال الأصمعي : أتعرف الالتفات جرير ؟

قلت : لا ، فما هي ؟ قال :

أتنسى إذ تودعنا سُلَيْمى بعود بشامة سُقَيَ البشام .

ألا تراه مقبلاً على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له ^١ .

ولكنَّ الالتفات ، بوصفه أسلوباً بيانياً ، ذكره بعض اللغويين في كتبهم قبل الأصمعي ، من غير أن يسموه ، وقد درسوه في كتبهم من خلال وروده في القرآن الكريم والأدب ، ومن هؤلاء أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه " مجاز القرآن " ، والفراء في " معاني القرآن " و " الكامل في اللغة والأدب " ، وابن فارس في " فقه اللغة " ، والعكبري في " التبيان في إعراب القرآن " و " إملاء ما من به الرحمن " ، وابن قتيبة في " تأويل مشكل القرآن " ، وهذا ما سيتناوله البحث في الصفحات القادمة ، بإذن الله .

(١) الالتفات في " مجاز القرآن " :

يعد أبو عبيدة (ت : ٢٠٨هـ) من أوائل اللغويين الذين تحدثوا عن الالتفات ، وقد ذكر له أمثلة من القرآن الكريم ومن الشعر العربي ، ولا تزال الأمثلة التي ذكرها أبو عبيدة تجري في كتب البلاغة حتى الآن ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) [يونس : ٢٢] ، إذ عدها أبو عبيدة من مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ، ثم تركت وحولت إلى الغائب ، وقوله سبحانه وتعالى : (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ . أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ) [القيامة : ٣٣ - ٣٤] ، وهذا من مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خاطب الشاهد .

وقد ذكر أبو عبيدة الالتفات في تفسيره لسورة الفاتحة ، في قوله : (مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ) ، وهذا مجاز ما جاء حدث عن مخاطبته غائباً ثم رجع مخاطباً شاهداً فقال : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة : ٤] .

^١ إعجاز القرآن، الباقلائي ، ص ٩٩ .

ونلاحظ أبا عبيدة لم يضع تعريفاً للالتفات ، وكان يسميه الترك أو التحويل أو الرجوع ، ولم يتعرض أبو عبيدة في (مجازة) للحديث عن أنواع الالتفات ولم يذكر شيئاً من الالتفات في الضمائر بين الخطاب والغيبة والتكلم أو بالعكس . . . ولم يشر إلى أي سر من أسرار الالتفات في أي نوع من أنواعه ، ومع ذلك يعتبر أبو عبيدة أول من تطرّق إلى الالتفات .

(٢) الالتفات في "معاني القرآن" للفراء :

ذكر أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧هـ) ، في "معاني القرآن" ، الالتفات ، لكنه لم يذكره بهذا الاسم ، كما أنه لم يذكر له تعريفاً محدداً ، وقد تأثر الفراء بأبي عبيدة في الأمثلة التي ذكرها للالتفات ، غير أنه زاد عليها كثيراً من آيات القرآن الكريم ، فعنيد قوله تعالى : (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافَّةً يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ) ، قال ومن قرأ (ترونهم) ذهب إلى اليهود ؛ لأنه خاطبهم ، ومن قال (يرونهم) فعلى ذلك يكون كما قاله : (حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَجَرَّيْنَهُمْ)^١ .

ويذكر ما في قوله تعالى من الالتفات : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) بقوله : رويت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : بل تحبون وتزرون بالتاء ، وقرأها ابن كثير : بل يحبون بالياء ، والقرآن يأتي على أن يخاطب المنزل عليهم أحيانا وحيناً آخر يجعلون كالغيب ، كقوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَجَرَّيْنَهُمْ بِرِيحٍ طَبِئَةٍ)^٢ .

ويدين الفراء للقرآن في الآية وتوجيه كل قراءة مبيّناً معناها في كل منها ، كقوله تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنِ طَبَقٍ) [الانشقاق : ١٩] .

إذ قال : وقرئت (ليركبن طبقاً عن طبق) ومعانيها معروفة لتركبن كأنه خاطبهم وليركبن كأنه أخبر عنهم^٣ . ويلاحظ أن الفراء لم يتعرض إلا لنوع واحد من أنواع الالتفات ، وهو الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، أو من الخطاب إلى الغيبة ، كما أنه لم يبرز جمال الالتفات وبلاغته في كل موطن ورد فيه .

(٣) الالتفات في "معاني القرآن" للأخفش الأوسط :

تحدث أبو الحسن الأخفش (ت ٢١٥هـ) عن الالتفات في مواضع

^١ الفراء ٢١١ - ٢١٢ / ٣ .

^٢ الفراء ٢١١ - ٢١٢ / ٣ .

^٣ الفراء ٢٥٢ / ٣ - ١ / ٤ .

محدودة من كتابه "معاني القرآن" ، ولم يذكر له اسماً ، كما هو دأب من سبقه من النحاة واللغويين ، ومن ذلك قوله : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ [البقرة : ٨٣] ، ثم قال : (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) ، ثم قال : (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) إذ إنه خاطبهم من بعد أن تحدث إليهم^١ .

والأخفش الأوسط يستشهد على أسلوب الالتفات بكثير من الشعر العربي . وقد تحدث الأخفش في كتابه "معاني القرآن" ، وذكر آيات كريمة تحتوي على أسلوب الالتفات من ضمير الغيبة إلى الخطاب وبالعكس ، ويظل الأخفش له فضل في إبراز أسلوب الالتفات كأسلوب بياني معروف في الكتاب العزيز وفي الشعر العربي .

(٤) الالتفات في "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة (ت ٢٦٧هـ) :

حيث تحدث ابن قتيبة ، في كتابه "تأويل مشكل القرآن" ، عن الالتفات ، وذلك في باب "مخالفة ظاهر اللفظ معناه" ، قال : ومنه أن تخاطب الشاهد بشيء ، ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب ، كقوله عز وجل : (حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) وقوله : (وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ) [الروم : ٣٩] ، وقوله : (وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبِّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) ثم قال : (أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) [الحجرات : ١٧] ، وترى أن ابن قتيبة لم يزد في الالتفات على من سبقه ، سواء بذكر الأمثلة من القرآن الكريم أم من الشعر ، ولم يأت لنا بجديد في ذلك ، ولم يظهر بلاغة هذا الأسلوب ولم يأت بأمثلة جديدة .

(٥) الالتفات في "الكامل" للمبرد :

أورد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ) ، في كتابه "الكامل" ، الالتفات تعقيباً وشرحاً لشعر الأعشى ، إذ قال : وأمتعني على العشا بوليدة فأبت بخير منك يا هود حامداً يقول المبرد : " فإنه كان يتحدث عنه ، ثم أقبل عليه يخاطبه ، ترك تلك المخاطبة ، والعرب تترك مخاطبة الغائب"^٢ . قال الله عز وجل : (حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) [يونس : ٢٢] ، كانت المخاطبة للأمة ، ثم صرفت للنبي صلى الله عليه وسلم إخباراً عنهم^٣ .

^١ الأخفش ، معاني القرآن ، ١/١٢٩ .

^٢ المبرد ٢٢ - ٣/٢٣ .

^٣ الكامل ، المبرد .

(٦) الالتفات في " فقه اللغة " لابن فارس :

عرض ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) الالتفات من غير أن يسميه ، فذكر له نوعين فقط : الأول بقوله : " باب تحويل الخطاب من الشاهد إلى الغائب " ، ثم قال : العرب تخاطب الشاهد ، ثم تحول الخطاب إلى الغائب ، كقول النابغة :

يا دار ميةً بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
انتقل من الخطاب إلى الغائب في " أقوت " ^١ .

وذكر ابن فارس أمثلة لهذا النوع من الالتفات من الآيات الكريمة التي استشهد بها من سبقه ، كأبي عبيدة والأخفش والفرّاء .
أما النوع الثاني فقال فيه : " باب تحويل الخطاب من الغائب إلى الشاهد " ^٢ ، ثم ذكر أمثلة مكررة ذكرها اللغويين والنحاة السابقون .
وبهذا نجد أن ما ذكره أحمد بن فارس في " فقه اللغة " لم يقدم جديداً في اللغة والأدب في موضوع الالتفات ، ولم يزد على من سبقه من الأدباء في شيء .

(٧) الالتفات في " التبيان في إعراب القرآن " (إملاء ما من به الرحمن) للعكبري :

تناول أبو البقاء عبد الله بن الحسن العكبري (ت ٦١٦ هـ) الالتفات في كتابيه السابقين ، وسيتناول البحث كلاً من الكتابين على حدة ، إن شاء الله .

(أ) الالتفات في " التبيان في إعراب القرآن " : هذا الكتاب ، كما يدل من عنوانه ، في إعراب الجمل والآيات القرآنية ، وقد تحدث صاحبه عن الالتفات في موطنه ، وفيما تكون علاقة بين الالتفات وحالة الإعراب في الجملة أو الكلمة .

والملاحظ أن المؤلف قد اقتصر على نوعين من أنواع الالتفات وهما : الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة . كما أنه سمى هذا الأسلوب " رجوعاً " . يقول العكبري في تفسير سورة الفاتحة :
فإن قيل : " إياك " خطاب ، و " الحمد لله " على لفظ الغيبة ، فكأن الأشبه أن يكون إياه ، قيل على عادة العرب الرجوع من الغيبة ، وسيمر بك من ذلك مقداراً في القرآن ^٣ .

^١ فقه اللغة ، ابن فارس ١ - ٢١٥ .

^٢ فقه اللغة ابن فارس ، ١ - ٢١٥ .

^٣ التبيان في إعراب القرآن ، العكبري ١/٧ .

وهذا يدلُّ على أنَّ هذا الأسلوب يقتصر عنده على الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة .

والعكبري يذكر القراءات الواردة في الآيات ، ويوجه كلَّ قراءةٍ توجيهاً نحويّاً ، وإذا كان فيها تغييرٌ في الضمائر ذكره ، فحينما فسّر قوله تعالى : (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ الْأَتَقَاتِ فُتُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْأَعْيُنِ) [آل عمران : ١٣] ، قال : (يَرَوْنَهُمْ) ، ويقرأ في المشهور بالياء ، فأما القراءة بالتاء فلأنَّ أول الآية خطاب وموضع الآية على هذا " . يقصد قوله (ترونهم) يجوز أن يكون نعتاً لفئتين ، أن فيها ضميراً يرجع عليها ، ويجوز أن يكون حالاً من الكاف في لكم . وأما القراءة بالياء فيجوز أن يكون في معنى التاء إلى أنه رجع إلى الخطاب في الغيبة والمعنى واحد ^١ .

وبهذا يتبين أنَّ العكبري عدَّ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة حاصلاً على قراءة الياء (يرونهم) وأما قراءة التاء (ترونهم) فلا التفات فيها .

وقد يكون الالتفات مرتبطاً بتصريف الفعل في الجملة وإعرابها ، كما في قوله تعالى : (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) [آل عمران : ٣٢] . يقول العكبري : قوله تعالى : (فَإِنْ تَوَلَّوْا) يجوز أن يكون خطاباً فتكون التاء محذوفة ، أي : فَإِنْ تَوَلَّوْا ، وهذا خطاب ، كالذي قبله ويجوز أن يكون للغيبة ، فيكون لفظه لفظ الماضي ^٢ .

فيكون رجوعاً من الخطاب في أول الآية (أطيعوا) إلى الغيبة بقوله : (فَإِنْ تَوَلَّوْا) فاعتبار الفعل (تَوَلَّوْا) أهو مضارع أو ماضٍ ، وهذا ما جعل أبا البقاء العكبري يعد الأسلوب غيبة أو خطاباً ، ومن ثم سيكون التفاتاً أو لا يكون .

الخلاصة والاستنتاجات :

- (أ) الالتفات ظاهرة أسلوبية بارزة في البيان القرآني .
- (ب) يعزز من جمالية النص ويكسر الرقابة النمطية .
- (ت) يسهم في تركيز الانتباه وفتح آفاق دلالية متعددة .
- (ث) له قيمة بلاغية عالية تعكس فصاحة القرآن وبلاغته .

^١ التبيان في إعراب القرآن ، العكبري ١/٢٤٣ .

^٢ التبيان في إعراب القرآن ، العكبري ١/٢٥٣ .

التوصيات والمقترحات :

- (أ) أكد البحث على أهمية الالتفات كأداة بلاغية فاعلة في القرآن الكريم .
- (ب) ويوصي بمزيد من الدراسات التي تدرس العلاقة بين الالتفات والمعاني السياقية .
- (ج) التوسع في الجانب التطبيقي على سور معينة .

قائمة المراجع :

١. القرآن الكريم .
٢. إعجاز القرآن ، الباقلائي ، أبو بكر محمد الطيب ، ت : السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، د . ت .
٣. الالتفات في البلاغة العربية ، طاهر عبد الرحمن قحطان ،
.....
٤. البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، مصر ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .
٥. البلاغة العربية ، د . عيسى علي عاكوب .
٦. التبيان في إعراب القرآن ، العكبري .
٧. التلخيص في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني .
٨. الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي .
٩. القراءات الشاذة ، د . إدريس حامد .
١٠. القراءات الشاذة ، د . عبد الله القرشي .
١١. الكامل ، المبرد .
١٢. الكشف ، الزمخشري .
١٣. صحيح البخاري .
١٤. فقه اللغة ، ابن فارس .
١٥. لسان العرب لابن منظور الأنصاري .
١٦. معاني القرآن ، الأخفش .
١٧. مفتاح العلوم ، السكاكي .
١٨. منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، القرطاسية .

مساهمة الشيخ محمد حنيف الندوي في العلوم الإسلامية

(الحلقة الثالثة الأخيرة)

الدكتور سيار أحمد نجار*

تعليمات غزالي : إنَّ الكتابَ المشهورَ للإمام الغزالي " إحياء علوم الدين " ظلَّ متداولاً دائماً في الأوساط العلمية وبين أهل الإحسان . وقد تناول الغزالي في هذا الكتاب أركانَ الدين ، وأحكامَ الإسلام ، ورموزَ التزكية ، والتوجيهات الإلهية بالشرح والتفصيل ، مبيناً ما تتطوي عليه من أسرار خفية ، وما يكمن وراء كل ركنٍ من أركان الدين من فلسفةٍ وحكمةٍ بالغة . وقد لخص الشيخ محمد حنيف الندوي أحدَ عشرَ باباً من هذا الكتاب الخالد للإمام الغزالي ، وهي من أهم أبواب " إحياء علوم الدين " وأصولها . وصاغها بأسلوبٍ أردني رشيق جذاب ، ورثبها تحت عنوانٍ بديع هو " تعليمات غزالي " .

كما كتب مقدمةً مطوّلةً تقع في مائة وثلاث صفحات ، تناول فيها رموزَ التزكية ودقائقها ببحثٍ مستفيض . وقد أوضح في هذه المقدمة أنَّ الإحسان ثروة نفيسة من الذوق والوجدان ، وأنه ذو أهميةٍ عظيمةٍ في تزكية الباطن وبناء السيرة والأخلاق ، كما بيّن المراحلَ المختلفة التي مرَّ بها الإحسان عبر تطوره ، وعرّف بأشهر مشايخه ومصطلحاته ، وألقى الضوء على الأحوال والمشاعر القلبية التي تتصل بالواردات الروحية .

ويُعَدُّ كتاب " تعليمات غزالي " كتاباً نفيساً وممتازاً من حيث موضوعاته ومحتوياته . أما الطبعة الأولى من " تعليمات غزالي " التي نُشرت سنة ١٩٦٢م ، فقد اشتملت على ٥٦٠ صفحة ، إضافة إلى سبع صفحات خُصّصت لفهرس الموضوعات .

أفكار ابن خلدون : هذا هو عملٌ مهمٌّ آخر للشيخ محمد حنيف الندوي ، وقد نشرته إدارة الثقافة الإسلامية . كان ابن خلدون خبيراً في علم العمران والاجتماع ، وعالماً فذاً في التاريخ وفلسفة التاريخ . وقد نالت كتبه شهرة واسعة ، غير أن كتابه " مقدمة ابن خلدون " حاز من التداول والقبول ما فاق كتابه " تاريخ ابن خلدون " .

* البريد الإلكتروني : sayarnajar000@gmail.com

وُلِد ابن خلدون في شهر رمضان سنة ٧٣٢هـ بمدينة تونس ، وتوفي سنة ٨٠٨هـ . وقد عاش حياة حافلة بالأحداث ، وأقام علاقات مع كثير من الشخصيات البارزة ، واتصل بعدد من الملوك والسلاطين ، وشارك في سياسات بلدان عديدة ، وأدّى فيها أدواراً عجيبة ومتميزة .

قام الشيخ محمد حنيف الندوي في كتابه " أفكار ابن خلدون " بترجمة بعض الأجزاء المهمة من " مقدمة ابن خلدون " إلى اللغة الأردية ، وأقام له اثنين وأربعين عنواناً اختارها من المقدمة للترجمة . ومن خلال ذلك يمكن معرفة مدى علو معيار اختياره وانتقائه ، ودقته ، وما كان يتمتع به من قوة ومتانة واستحكام . كما تشتمل هذه العناوين على كثير من العناوين الفرعية .

واللغة في الكتاب واضحة ، جميلة ، وسلسلة إلى درجة أن القارئ لا يشك أبداً في أنه يقرأ ترجمة . ويحتوي كتاب " أفكار ابن خلدون " على مقدمة مطوّلة تقع في إحدى وسبعين صفحة ، تناول فيها ابن خلدون من حيث سيرته وأحواله ، وأفكاره ونظرياته ، مع شرح لمصطلحاته . كما أوضح فيها مدى علو مكانته في علم العمران والاجتماع ، والدور الذي قام به في سياسات البلدان المختلفة ، ومقدار إسهامه في تطوير مسيرة التاريخ ، وما أضافه إليها من قيم جديدة .

وخلاصة القول أن الشيخ محمد حنيف الندوي قد أبرز في مقدمة الكتاب جميع جوانب سيرة ابن خلدون ، وقام بتحليل أفكاره وتصوراته من مختلف الجوانب بكل وضوح وعمق . ولا يستطيع القيام بهذا العمل إلا شخص اتسعت آفاق نظره وفكره ، وكان ذا علم واسع ومطالعة غزيرة من شتى الجوانب . والحمد لله ، فإن الشيخ محمد حنيف الندوي متصف بهذه الصفات على أكمل وجه ، وله الأهلية الكاملة للقيام بمثل هذه الخدمة العلمية بأحسن أسلوب .

وقد طبع كتاب " أفكار ابن خلدون " لأول مرة سنة ١٩٥٤م ، ويقع في ٢٣٣ صفحة شاملة الفهرس والمقدمة ^١ .

قديم يوناني فلسفي: " قديم يوناني فلسفي " هو ترجمة أردية لكتاب " مقاصد الفلاسفة " للإمام الغزالي ، وقد تناول فيه مسائل المنطق والرياضيات والطبيعيات . والكتاب في الأصل يدور حول علوم طائفة الحكماء والفلاسفة ، ويقوم

^١ بهي ، محمد اسحاق: ارمغان حنيف ، ص ٤٧ - ٥٠ .

على دعوى عرض آرائهم ومقاصدهم من غير خوض في نقد أو تمحيص .
غير أن المتأمل في الكتاب يدرك أن الإمام الغزالي قد عبّر في مواضع
عديدة عن آرائه الخاصة أيضاً .

ويرى الشيخ محمد حنيف الندوي أن الرسالة الحقيقية في حياة الإمام
الغزالي كانت الكشف عن الأضرار والانحرافات التي نتجت عن الفلسفة
اليونانية ، وكذلك إزالة الأوهام وسوء الفهم الذي نشره ابن سينا والفارابي .
ولذلك كان من الضروري للإمام الغزالي أن يثبت مكانته في ميادين الفكر
والفلسفة ، وأن يبرهن على تمكنه العميق من العلوم الفلسفية . ومن هنا
يتضح السياق الأساسي لتأليف كتاب " مقاصد الفلاسفة " .

وقد ترجم الشيخ محمد حنيف الندوي هذا الكتاب لثلاثة أسباب :
أولها اهتمامه الخاص بالمؤلفات الفلسفية للإمام الغزالي . وثانيها الرغبة
في الوقوف على الفروق العميقة في المصطلحات والمعاني التي ظهرت من
خلال الترجمات الغربية للفلسفة اليونانية ، وقد تجلت هذه الفروق بوضوح
في هذه الترجمة . أما فيما يتعلق بحركة الترجمة والأخذ عند العرب ، فقد
كان الشيخ الندوي يرى أنهم يتصفون بالأمانة وحسن الذوق وجودة الأسلوب .
وأما السبب الأخير فهو أن نقل العلوم العقلية إلى اللغة الأردية يمكن أن
يخلص القراء من تعقيدات النصوص العربية المتشابكة والصعبة^١ .

تهافت الفلاسفة : اشتهر كل من الإمام الغزالي وابن رشد بوصفهما إمامين
مجتهدين في الحكمة والفلسفة . ومن أشهر مؤلفات الغزالي كتابه " تهافت
الفلاسفة " ، ومن أبرز المؤلفات الفلسفية القيّمة لابن رشد كتابه المعروف "
تهافت التهافت " ، الذي ألفه ردّاً على كتاب الغزالي تهافت الفلاسفة . وتعدّ
هاتان المؤلفتان من المعالم البارزة في تاريخ العقائد والأفكار الإسلامية .

وقد أبرز الغزالي في تهافت الفلاسفة ضعف الفلسفة اليونانية
وقصور الفكر الإنساني وجهوده المحدودة ، وبين أن للفكر الإنساني
والعقيدة منطقتين خاصتين وفهماً وأسلوباً متميّزاً في الاستدلال ، لا يمكن
إدراكه إلا في ضوء طبيعته الخاصة .

ثم جاء ابن رشد فألف تهافت التهافت ، مجيباً عن اعتراضات
الغزالي من منظور الفلسفة اليونانية ، وبأسلوب فلسفي خالص . وتحتل
هاتان المؤلفتان مكانة عظيمة لدى أصحاب الفلسفة ، وتُقرأ باهتمام

^١ د . سعيد ، سعادت : مولانا محمد حنيف ندوي ایک تعارفی مطالعہ ، ص ۱۰۴ - ۱۰۵ .

بالغ لما لهما من أهمية علمية وفكرية .

وقد قام الشيخ محمد حنيف الندوي بتلخيص وشرح تهافت الفلاسفة بلغة أردية سلسة جذابة وعذبة الأسلوب . وإلى جانب ذلك ، كتب مقدمة مطوّلة رائعة تناول فيها أفكار الغزالي وابن رشد بالنقد والتحليل والموازنة الدقيقة . وقد استفاد في هذا التحليل من المحاكمات التاريخية للعلامة الطوسي وخواجه زاده ، كما وضع نصب عينيه الاتجاهات الفلسفية الحديثة ، ثم عبّر عن آرائه الخاصة بأسلوب متميّز . تُعدُّ هذه المحاولة التي قام بها الشيخ وثيقة قيّمة للغاية للباحثين العاملين في مجال الفلسفة الإسلامية . فهي تكشف مدى تأثير الفلسفة اليونانية في علم الكلام الإسلامي . كما تُبرز على المستوى الفكري والنظري الجوانب التي أضاف فيها الحكماء والمتكلمون المسلمون إضافاتٍ اجتهدية إلى الأفكار والتصورات اليونانية . وتكشف هذا الكتاب أيضاً عن آفاق فكرية جديدة يمكن في ضوئها تشييدُ صرح علم الكلام الحديث . وقد ذكر الشيخ في هذا الكتاب عشرين مبحثاً ومسألة فلسفية . ويقع الكتاب في ٢١٩ صفحة ، منها ٨٨ صفحةً للمقدمة ، إضافةً إلى ست صفحات للفهرس ، وبذلك يبلغ مجموع صفحاته ٢٢٥ صفحة . وقد طبع هذا الكتاب للشيخ الندوي لأول مرة سنة ١٩٧٤م^١ .

مكتوب مدني : في مجال الإلهيات تكتسب هذه المناقشة أهمية خاصة ، وهي : ما طبيعة العلاقة والارتباط بين الله تعالى والكون ؟ وفي هذا السياق قدّم ابن عربي نظرية " وحدة الوجود " ، وخلّصتها أن بحر الوجود في حقيقته واحد ، وأن الكون بأسره ليس إلا أمواجاً متلاطمة من ذلك البحر اللامتناهي .

وفي مقابل ذلك أوضح مُجدّد الألف الثاني " نظرية الشهود " التي ترى أن هناك وجودين : أحدهما وجود العالم المادي ، والآخر وجود الحقيقة المتعالية وراء عالم الظواهر .

لقد حاول الإمام ولي الله الدهلوي التوفيق بين هاتين النظريتين . وقد سأله في هذا الشأن العالم المشهور في عصره إسماعيل بن عبد الله آفندي الرومي المدني ، فأجابه برسالة مفصلة ، ثم نُشرت هذه الرسالة في صورة كتاب . وهذه الرسالة مكتوبة باللغة العربية ومعروفة باسم " المكتوب المدني "

^١ بجي ، محمد اسحاق : ارماغان حنيف ، ص ٤٣ - ٤٥ .

وقد قام الشيخ محمد حنيف الندوي بترجمة هذه المحاولة العلمية المهمة للشيخ ولي الله إلى اللغة الأردية بأسلوب شيق وسلس . ويقع "المكتوب المدني" في اثنتين وثلاثين صفحة ، وقد نُشر لأول مرة سنة ١٩٦٥م من قبل "إدارة الثقافة الإسلامية" ^١ .

الخاتمة :

كان الشيخ محمد حنيف الندوي عالماً إسلامياً بارزاً ، ومربياً ، ومؤلفاً من الهند ، عُرف بإسهاماته الكبيرة في الفكر الإسلامي والتعليم . وتعكس حياته وآثاره العلمية التزاماً عميقاً بنشر القيم الإسلامية ، وتعزيز الحوار بين الأديان ، ومعالجة القضايا المعاصرة التي تواجه المجتمع المسلم . وقد أدّى الشيخ حنيف الندوي دوراً مهماً في تأسيس المؤسسات التعليمية التي تجمع بين التعليم الإسلامي والعلوم الحديثة ، وكان هدفه إعداد منهج متوازن يهيئ الطلاب للتعامل مع متطلبات العصر الحديث مع الحفاظ على ارتباطهم بدينهم وهويتهم الإسلامية .

وقد ألف العديد من الكتب والمقالات في مختلف مجالات الإسلام ، بما في ذلك العقيدة ، والتاريخ ، والقضايا المعاصرة . وتمتاز كتاباته بالوضوح ، والعمق الفكري ، والتأكيد على أهمية التعاليم الإسلامية وملاءمتها للواقع المعاصر . وكان الشيخ الندوي من الداعين إلى الحوار بين أتباع الأديان المختلفة ، إذ كان يؤمن بأهمية التفاهم والاحترام المتبادل بين الأديان ، وقد تجلّى ذلك في مشاركته في العديد من المبادرات والأنشطة المتعلقة بالحوار بين الأديان .

وخلال حياته اهتم بالقضايا الاجتماعية التي تؤثر في المجتمع المسلم ، ودعا إلى التعليم ، والعدالة الاجتماعية ، والتنمية المجتمعية . وكانت جهوده تهدف إلى النهوض بالمجتمع المسلم وتشجيعه على المشاركة الفاعلة في الحياة العامة . ولا تزال آثاره العلمية والفكرية مستمرة من خلال المؤسسات التي أسسها ، والعلماء والطلاب الذين تأثروا بفكره . كما أن تأكيده على أهمية التعليم والحوار لا يزال ذا صلة وثيقة بالنقاشات المعاصرة حول دور الإسلام في المجتمعات التعددية .

^١ المرجع السابق ، ص ٥٠ - ٥١ .

وقد شدّد على أهمية الجمع بين التعليم الديني والتعليم العصري ، مما أدى إلى إنشاء العديد من المؤسسات التعليمية . وأسهمت مؤلفاته الغزيرة في إثراء المكتبة الإسلامية ، حيث قدمت رؤى عميقة حول مختلف جوانب الإسلام ، وعالجت التحديات المعاصرة التي يواجهها المسلمون . كما عمل على تعزيز الوحدة بين المسلمين ، وترسيخ التفاهم مع أتباع الديانات الأخرى ، وهو أمر بالغ الأهمية في المجتمعات المتنوعة اليوم . ومن خلال معالجته للقضايا الاجتماعية ودعوته إلى الإصلاح ، ساهم في الارتقاء بالمجتمع المسلم في الهند وتقدمه .

إن حياة الشيخ محمد حنيف الندوي وأعماله تمثل مزيجاً متناسقاً بين الأصالة الإسلامية التقليدية والممارسات التعليمية الحديثة ، مما جعله شخصية بارزة في ميدان الفكر الإسلامي المعاصر . ولا تزال إسهاماته العلمية والفكرية والاجتماعية مصدر إلهام للأجيال القادمة من العلماء والمفكرين وقادة .

المصادر والمراجع :

١. بھٹی، محمد اسحاق: ارمان حنیف، کبائن پرنٹرز، لاہور، ط-۱، ۱۹۸۹۔
٢. سعید، سادات: الشیخ محمد حنیف ندوی: ایک تعارفی مطالعہ، مکتبہ جدید، لاہور، ط-۱، ۲۰۱۳۔
٣. ندوی، محمد حنیف: افکار ابن خلدون، مکتبہ جدید پریس لاہور، ط-۴، ۱۹۷۴۔
٤. ندوی، محمد حنیف: افکار غزالی، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور، ط-۳، ۱۹۸۱۔
٥. ندوی، محمد حنیف: عقلیات ابن تیمیہ، مکتبہ جدید پریس لاہور، ط-۲، ۲۰۰۱۔
٦. ندوی، محمد حنیف: اساسات اسلام، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور، ۱۹۷۳۔
٧. ندوی، محمد حنیف: لسان القرآن، جلد: اول، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور، ۱۹۸۳۔
٨. ندوی، محمد حنیف: لسان القرآن، جلد: دوم، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور۔
٩. ندوی، محمد حنیف: مسئلہ اجتہاد، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور، ۱۹۶۲۔
١٠. ندوی، محمد حنیف: مسلمانوں کے عقائد و افکار، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور، ط-۱، ۱۹۶۸۔
١١. ندوی، محمد حنیف: مطالعہ قرآن، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور، ۱۹۷۸۔
١٢. ندوی، محمد حنیف: مکتوب بدنی، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور، ۱۹۷۴۔
١٣. ندوی، محمد حنیف: مطالعہ حدیث، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور، ۱۹۷۹۔
١٤. ندوی، محمد حنیف: قدیم یونانی فلسفہ، مجلس ترقی ادب، لاہور، ۱۹۵۹۔
١٥. ندوی، محمد حنیف: تعلیمات غزالی، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور، ۱۹۶۱۔
١٦. ندوی، محمد حنیف: تہافت الفلاسفہ، ادارہ ثقافت اسلامی، لاہور، ۱۹۷۴۔
١٧. ندوی، محمد حنیف: سرگشت غزالی، ادارہ ثقافت اسلامیہ، لاہور، ط-۲، ۱۹۶۹۔
١٨. https://en.wikipedia.org/w/index.php?title=Muhammad_Hanif_Nadvi&oldid=۱۲۲۱۹۶۴۳۸۵

بردة كعب بن زهير ونسيجها

الدكتور حسن الأمراني*

مما ذكره الثعالبي ، في " ثمار القلوب " ، بردة كعب بن زهير رضي الله عنه ، وخبرها مشهور . وهي على شهرتها تحتاج منا وقفة خاصة ، لما صنعتها في تاريخ الشعر العربي من انقلاب .

قال الثعالبي : " بردة النبي صلى الله عليه وسلم : يضرب بها المثل في البلى والخلوقة ، فيقال : أعتق من الحنطة ، ومن بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي التي كساها رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن زهير رضي الله عنه لما أنشده قصيدته التي منها :

نُبِّئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
فاشتراها معاوية رضي الله عنه منه بست مائة دينار ، فلم يزل
الخلفاء يتداولونها تبركاً بها إلى يومنا هذا ^١ . أي إلى زمنه .

وهذه البردة المباركة التي خلعها رسول الله صلى الله عليه وسلم على كعب أثرت في المديح النبوي بالمشرق والمغرب عبر العصور . وقد عارضها عدد كبير من الشعراء ، ومن تلك المعارضات لامية لابن نباتة المصري ^٢ بدأها بقوله :

ما الطرف بعدكم بالتَّوم مكحول هذا وكم بيننا من ربعكم ميل
ما يمسك الهدب دمعي حين أذكركم إلا كما يمسك الماء الغرايل
وهي في تسعة وسبعين بيتاً ، منها الغزل ، ومنها المديح النبوي ، وفيها يصرح بمعارضة كعب بن زهير ، فيقول :

* رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية .

^١ نفسه : ٥٧ .

^٢ ابن نباتة المصري جمال الدين محمد بن محمد : شاعر مكثّر من شعراء القرن الثامن ، وُلِدَ بالقاهرة في زقاق القناديل في ربيع الأول سنة ٦٨٦هـ ، وتوفي يوم الثلاثاء من صفر سنة ٧٦٨هـ بالبيمارستان المنصوري ، ودُفِنَ خارج باب النصر بترية الصوفية . ولُيْتَبَّهَ القارئ إلى كلمة " تربة الصوفية " ، فهي من الدلائل على غلبة التصوف في ذلك الزمان . وهو غير الشاعر ابن نباتة السعدي الذي توفي (٤٠٥) .

إِنْ كَانَ كَعَبٌ بِمَا قَدْ قَالَ ضَيْفُكَ فِي
وَأَيْنَ كَابِنٍ زُهَيْرٍ لِي شَذَا كَلِمٍ
بَانَتْ مَعَاذِيرُ عَجْزِي عَنْ نَدَاكَ وَعَنْ
وَمِنْهَا :

مَا يُمْسِكُ الْهُدْبُ دَمْعِي حِينَ أَذْكُرْكُمْ
بَانَتْ زَخَارُفُهَا بِالصَّبْرِ وَاعِدَةٌ
يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ لِي فِي الْمُذْنِبِينَ غَدًا
وَيَقُولُ فِي الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ :

مُحَمَّدُ الْمُجْتَبَى مَعْنَى جِبَلَتِهِ وَمَا لِيَادَمَ طِينٌ بَعْدُ مَجْبُولُ
فهو هنا يذهب مذهب المتصوفة ، الذين يرون أن النبي محمداً
صلى الله عليه وسلم خُلِقَ قَبْلَ آدَمَ ، استناداً إلى بعض الأحاديث الشريفة ^١ .
وفي القصيدة أبيات تعبر عن روح عصره وتصويراته عن المصطفى
صلى الله عليه وسلم .

ومن المتقدمين من الشعراء الذين اختاروا اسم البردة لقصائدهم
الإمام البوصيري الصنهاجي ، بل هو أقدمهم وأشهرهم . وهو إنما اختار
تسمية قصيدته بالبردة ، لا لأنه عارض لامية كعب ، بل لأنه فيما تقول
الرواية رأى النبي صلى الله عليه وسلم يلبسه بردة ، فشفي من داء كان
به . ففي ديوانه : " وهذه القصيدة تعرف بالبردة ، أو البرّة ، وقد وفد بها
على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مريض ، فعوفي من وقته وساعته " ^٢ .
إن بردة البوصيري من فرائد الشعر العربي ، ولأنها صارت تتشد
في المساجد ، والمناسبات الدينية ، اكتسبت شهرة شعبية لم تتلها قصيدة

^١ مثل حديث العرياض بن سارية السلمى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال : إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل في
طينته . رواه الإمام أحمد ، وروي معناه من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ،
ومن وجوه آخر مرسل ، وخرج الحاكم أيضاً حديث العرياض ، وقال : صحيح
الإسناد ، ووافقه الذهبي .

^٢ ديوان البوصيري : نظم شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد ، تحقيق محمد
سيد كيلاني ، مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٠م ، ص ١٩١ .

أخرى ، عبر العصور .

يقول في مقدمتها :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استنق يهم
وقد اقتبس بذكاء من شعر سابقه ، من المديح الفاني ، فحوله
إلى المديح النبوي ، ومن ذلك قوله :

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت من جهلها بنذير الشيب والهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ضيف ألم برأسي غير محتشم
فقوله " ضيف ألم برأس غير محتشم " هو من قول أبي الطيب ،
من مطلع قصيدة له :

ضيف ألم برأسي غير محتشم والسيف أحسن فعلا منه باللمم
وقوله : " بنذير الشيب والهرم " هو من قول المتنبي ، من القصيدة
نفسها :

ما أبعد العيب والنقصان من شريفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم
وإذا كان النقاد يقولون : إن من أخذ بيتاً من صاحبه فأحسن
الأخذ كان أحق به من صاحبه ، فإن البوصيري قد أخذ فأحسن الأخذ .
وفيه يقول :

أكرم بخلقٍ نبيّ زانه خُلُقٌ بالحسن مشتمل بالشبر متسم
والحسنُ شيءٌ معنوي ، وهو يختلف عن الجمال الذي يكون
معنوياً وحساً ، وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم مشتملاً بالحسن ،
والاشتغال يكون بالشملة ، وهي شيءٌ حسي .
قالت النوار بنت جل :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورّد يا سعد الإبل
جاء في مجمع الأمثال للميداني :

هذا سعد بن زيد مناة أخو مالك بن زيد مناة الذي يُقال له : آبل من
مالك ، ومالك هذا هو سبط تميم بن مرة ، وكان يُحمق إلا أنه كان آبل
زمانه ، ثم إنه تزوج وبني بامراته ، فأورد الإبل أخوه سعد ، ولم يحسن

القيام عليها والرفق بها ، فَقَالَ مالك :
أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلٌ مَا هَكَذَا يَا سَعْدُ تُورِدُ الْإِبِلَ
قَالُوا : يضرب لمن أراد المراد بلا تَعَب ، والصواب أن يُقَالَ : يضرب
لمن قَصَرَ في الأمر .

وأشار البوصيري إلى نسج العنكبوت على الغار ، وإلى الدروع
المضاعفة النسج التي يستعصم بها الناس في الحروب ، فقال :
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تتسج ولم يحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم
وخير الدروع ما كان مضاعف النسج . والأطم هي حصون المدينة
المنورة المنيعة .

ويمتصّ ، بلطف ، معنى ألمّ به عمرو بن كلثوم في قوله :
بأنّا نورد الرايات بيضا ونصدرهنّ حمرا قد رويانا
فقال يصف الصحابة رضي الله عنهم في الغزوات :
المُصْدِرِي البِيضَ حُمْرًا بعدما وردت من العدا كلّ مُسَوِّدٍ مِنَ اللَّمَمِ
ومن المتأخرين الذين تأثروا ببردة البوصيري عائشة التيمورية ، في
ديوانها الذي سمته : (حلية الطراز)^١ .

ومعارضتها للبوصيري واضحة ، حيث تقول في مقدمة القصيدة :
أَعَنْ وَمِيضٍ سَرَى فِي حُنْدَسِ الظُّلَمِ أَمْ نَسَمَةٌ هَاجَتْ الْأَشْوَاقَ مِنْ "إِضْمٍ"
فَجَدَدْتُ لِيْ عَهْدًا بِالْغَرَامِ مَضَى وَشَاقَنِي نَحْوَ أَحْبَابِي "بِذِي سَلَمٍ"
إلى أن تقول :

حسبي من الحبّ ما أفضى إلى تلفي وما لقيت من الآلام والسَّقَمِ
إلّني رددتُ عناني عن غوايته وقلتُ يا نفسُ خلّي باعث التَّدَمِ
ولُدْتُ بالمصطفى ربّ الشفاعة إذ يدعو المنادي فتحيا الناسُ من رَجَمِ
وقد بلغت القصيدة أربعين بيتاً .

ومما تمتاز به قصيدة عائشة تخففها من السرد التاريخي ، حيث

^١ حلية الطراز ، ديوان عائشة التيمورية ، مع القصائد التي لم يسبق نشره ، لجنة
نشر المؤلفات التيمورية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتاب العربي ، ١٩٥٢م (موقع
مكتبة لسان العرب) ، والقصيدة في قسم الشعر الديني ، ص ٢٦٩ .

اكتفت بأن تلم بخبر حنين الجذع ، واعتتت بإبراز أشواقها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى مغفرة الله تعالى ، مما غلب الطابع الوجداني على القصيدة .

في حين طغى السرد التاريخي على أكثر المعارضات ، مما جعل التقاطع ملحوظاً بينها ، ومنها الإشارة إلى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولجؤته إلى غار ثور ، وما كان من نسج العنكبوت ، واعتصام الحمام بالغار .

أما محمود سامي البارودي فقد نظم قصيدة يعارض بها البوصيري ، وسماها : " كشف الغمة في مدح سيّد الأمة " ١ ، قدم لها بكلمة قال فيها : " حمّدُ الله لذاته آية الإيمان والإخلاص ، والصلاة والسلام على النبي وآله محجّة الخلاص ، (وبعد) فهذه ضمّنتها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من حين مولده الكريم إلى يوم انتقاله إلى جوار ربّه (الحليم) ٢ ، وقد بنيتها على سيرة ابن هشام وسميتها " كشف الغمة " ، في مدح سيّد الأمة " ، ورغبتني إلى الله أن تكون لي ذريعة أمتُّ بها يوم المعاد ، وسلماً إلى النجاة من هول المحشر ، اللهم فحقّق رغبتني إليك ، واكسها بفضلك رونق القبول ، آمين " ٣ .

وفي آخر هذه المخطوطة ما يطمئن على ما فيها : " صححها وفسر بعض غريبها كاتب يد الناظم في سنيه الأخيرة ياقوت المرسى عفي عنه " . ومطلع القصيدة :

يا رائد البرق يممّ دارة العلم واحد الغمام إلى حيّ بذي سلم
وتستغرق المقدمة التقليدية حوالي عشرين بيتاً ، يذكر فيها الأماكن التقليدية ، مثل ذي سلم ، ومنها الروحاء التي يدعو لها بالسقيا ، ويقول :
إذا استهلّت بأرض نممت يدها برّداً من الثور يكسو عاري الأكم
وهذا تعبير مليح عما تصنعه الدير من جميل النسج ، وجمال البرد ،

^١ نشرت هذه القصيدة مستقلةً ، مصححةً على نسخة الناظم المقروءة عليه . ولم تشر في ديوانه . طبعت بمطبعة الجريدة ، بسراي البارودي ، بغيظ العمدة ، بمصر ، سنة ١٣٢٧هـ .

^٢ كلمة مطموسة ، اقترحنا بدلاً منها ما يناسب السياق .

^٣ كلمة مطموسة ، اقترحنا بدلاً منها ما يناسب السياق .

^٤ نفسه ، ص ٢ من المطبوع .

وهو بُرْدٌ من النُّورِ ، والنُّورُ ، بتشديد النون وفتحها وتسكين الواو ، النُّورُ .
 وفي أساس البلاغة : "نُورَ الشجرُ : خرج نَوَارُهُ ونُورُهُ " . وعلى هذا ألف
 العالم الجليل الأستاذ الشيخ محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف
 (المتوفى ١٣٦٠هـ) كتاباً أسماه : " شجرة النُّورِ الزكية في طبقات
 المالكية " ^١ . وقال في خطبة الكتاب : " ثم لخصت المقصد في صورة
 شجرة ، بعبارات وجيزة محررة ، أغصانها بالدرّ يانعة ، وثمراتها طيبة
 نافعة ، وأنوارها ساطعة لامعة ، روضها كله زهر ، وسلكها كله درر ،
 شجرة تقتبس أنوارها ، وتجتني ثمارها وأزهارها ، لم تزل من البركة في
 السمو في النماء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء " ^٢ .

وروى البارودي في قصيدته سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ،
 ووقف عند الموقف المحمي الذي كان يتحول ملحمة قتال بين أهل مكة ،
 وقد اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود من مكانه في الكعبة ،
 واحتكموا ، فقال :

فقال : كلّ رضيعنا بالأمين على	علم ، فأكرم به من عادل حكم
فأعلموه بما قد كان واحتكوا	إليه في حلّ هذا المشكل العمم
فمدّ ثوباً وحط الركن في وسط	منه وقال ارفعوه جانب الرضم
فقال كل امرئ حظاً بما حملت	يداه منه ولم يعتب على القسم

وكما روى البوصيري قصة الحمام ونسج العنكبوت ، كذلك
 فعل البارودي وهو يقول :

وجاءه الوحي إيذاناً بهجرته	فيمم الغار بالصدّيق في الغسم
فما استقرّ به حتى تبوّأه	من الحمام زوج بارع الرّم
بنى به عشّه واحتله سكناً	يأوي إليه غداة الريح والرهم

وفصل الحديث عن إلفي الحمام وما يحملان في الصدر من سر ،
 قدراً من الله تعالى ، قبل أن يصل إلى نسج العنكبوت ، قائلاً :

^١ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، والمؤلف تونسي من المنستير ، خرج
 حواشي الكتاب وعلق عليه عبد المجيد خيالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،
 الطبعة الأولى ٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ . وسمعت بعض الراسخين في العلم ، رحمه الله ،
 يُدرّس طلبته ويقول : " شجرة النُّورِ الزكية " ، وينصّ على أنها بفتح النون المشددة .
^٢ نفسه : ص ١١ .

وسجّف العنكبوت الغارَ محتفياً بخيمة حاكها من أبداع الحيم
 قد شدّ أطناها فاستحكت ورسّت بالأرض لكنها قامت بلا دعم
 كأنها سابريّ حاكه لبقٌ بأرض سابور في بحبوحة العجم
 وهذا التفصيل ، والحديث عن الطنب التي تشد بها العنكبوت
 بيتها ، حتى استحكم ، ثم تشبيهه بالسابري ، وهو إنما يكون للمرأة
 تتزين به ، كما قال ابن أبي ربيعة في وصف هند :
 إنما خُبَل قلبي فاحتوى صعدة في سابريّ تطرّد
 كل ذلك وغيره مما لا نجده عند غير البارودي ، فيما نعلم . وهو
 ما أشرنا إلى خلو قصيدة التيمورية منه .

وفي خوايتم القصيدة ، يتحدّث عن مدحته قائلاً :
 فهاكها يا رسول الله زاهرة تُهدي إلى النفس رياء الآس والبرم
 وسمتها باسمك العالي فألبسها ثوبا من الفخر لا يبلى على القدم
 وهذا الثوب ، الذي ينهي به القصيدة ، إنما هو ذلك الثوب
 المجازي الذي طالما تغنى به الشعراء .
 ثم جاء أحمد شوقي^١ ، فنظم " نهج البردة " ^٢ ، وبلغت شهرتها
 الآفاق ، ولا سيما بعدما قدمت إلى الناس مغناة .
 ومطلعها :

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم
 وقد ألمّ ، هو أيضاً ، بقصة نسج العنكبوت ، إلا أنه لم يفصل
 تفصيل البارودي ، رغم أنه جمع في أبيات معدودات ما أراد ، فقال :
 سل عصبة الشراك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم
 هل أبصروا الأثر الوضأ أم سمعوا همس التسابيح والقرآن من أمم
 وهل تمثّل نسج العنكبوت لهم كالغاب ، والحائثات الرغب كالرّخم ؟
 هذا ، وأثر البردة في الأدب العربي كبير . وكانت قصيدة البردة

^١ ديوان أحمد شوقي ، توثيق وتبويب وشرح وتعقيب الدكتور أحمد محمد الحويّ ،
 مطبعة نهضة مصر . هذا ، وقد سمى أحمد شوقي ديوانه : " الشوقيات " . وهو الذي
 كتب مقدمته الدكتور أحمد هيكّل .

^٢ الديوان ، ص ٦١٧ ، وفيه قسم سماه : " نبويات " ، ص ٥٩٦ ، وأول قصيدة فيه هي
 همزيته : (ولد الهدى) .

للبوصيري أكثر القصائد تأثيراً فيمن جاء بعده ، وحسبنا قول شوقي في معارضته :

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي وكيف لا يتسامى بالرسول سمي ؟
المدحون وأرباب الهوى تبع لصاحب البردة الفيحاء في القدم
قال الدكتور زكي مبارك ، عن أثر البردة : " يمكن رجوع أثر البردة في اللغة العربية إلى خمس نواح : أثرها في الجماهير الشعبية ، وأثرها في التأليف ، وأثرها في الدرس ، وأثرها في الأشعار ، وأثرها في البديعيات " ^١ .
وعرض الأستاذ حيدر قفة لمعارضات الشعراء لكعب بن زهير ^٢ ، وكان مما قال : " أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق أن اسمعوا شعر كعب بن زهير ، وهذا يدل على رضا الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الشعر ، واستحسانه لكلمات كعب ، مما حدا بالمسلمين على مر العصور لتقبلها والإشادة بها ، فخمّسوها وشطّروها وشرحوها وعارضوها ، وتوارث المسلمون احترام قصيدة كعب حتى قال أبو جعفر الألبيري : حدثني بعض أشياخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة كعب ، فقليل له في ذلك فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله ! قصيدة كعب أنشدتها بين يديك ؟ فقال : نعم ، وأنا أحبها وأحب من يحبها . قال : فعاهدت الله أنني لا أدخل من قراءتها كل يوم " . ثم علق على هذا الخبر قائلاً : " وسواء صحت الرواية أم لم تصح ، فإنها لا تدل على شيء أكثر من دلالتها على اهتمام الناس بقصيدة كعب ، وإيمانهم بأنها نلت من الرسول الاستحسان والقبول " ^٣ .
وقد أورد بعد ذلك مطالع عشرين قصيدة من القصائد التي عارض بها أصحابها لامية كعب بن زهير .

هذا بعض ما دعت بردة كعب بن زهير إليه من حديث عابر .
والله ولي التوفيق .

^١ يراجع كتاب زكي مبارك : " المدائح النبوية " ، حيث يخصص الفصل التاسع لعناصر البردة ، بينما يعقد فصلاً خاصاً لأثر البردة في اللغة العربية ، هو الفصل العاشر .

^٢ المعارضات وأثرها في الأدب العربي ، حيدر قفة ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

^٣ نفسه : ٢٨ .

ربيع الخلود

الشاعر عبد الله راغب *

قَدْ كَانَتْ الْأَرْضُ يَطْمُو جَهْلُهَا صَرَرًا
مَوْجٌ مِنَ الرَّجْسِ أَمْسَى فِي الْمَدَى شَرَرًا
تَهْوِي النُّفُوسُ إِلَى الْأَوْتَانِ فِي سَفَاهِ
تَدْوِي الْأَمَانِي عَلَى أَغْصَانِهَا كَمَدًا
تَسُورُ الْبَغْيُ وَالْأَحْقَادُ نَحْوَتَهُمْ
وَتَطْلَحُنُ الْقَسْوَةُ الْهَوَجَاءُ أَنْفُسَهُمْ
وَتُوَادُّ الْهِنْتُ فِي الرَّمْضَاءِ تَنْهَشُهَا
سَيْفٌ يُسَلُّ عَلَى شِبْهِ الْمُنَى طَمَعًا
ضَاعَتْ كَرَامَةُ هَذَا الْإِنْسِ فِي ظُلْمٍ
دُنْيَا تَمْوُجُ بِأَوْهَامٍ مُكَبَّلَةٍ
ضَلَّتْ فِجَاجُ الْوُجُودِ الرَّحْبِ وَانْقَطَعَتْ
تَرْتَحُ الْعَالَمُ الْمَغْشَى فِي زَلَلٍ
فَجَاسَتْ الرَّحْمَةُ الْكُبْرَى فَمَا بَقِيَتْ
وَقَدْ أَتَى "أَحْمَدُ" فَالْأَرْضُ فِي طَرَبٍ
وَأَغْدَقَ النُّورُ يُجْلِي كُلَّ دَاجِيَةٍ
وَمَاسَتْ الْأَرْضُ فِي طَيْبِ الْهُدَى فَرَحًا
تَنْفَسُ الْمَجْرُ أَنْوَارًا بِمَقْدَمِهِ

* حيدرآباد ، الهند .

تَشْدُو بِهِ الطَّيْرُ فِي الْأَغْصَانِ مِثْدَنَةً
وَتَزْدْهِي الْأَرْضُ لِلْأَفْلَاحِ زَاهِيَةً
تَضُوعُ مِنْ طَيْبِهَا الْأَجْرَامُ عَاطِرَةً
كَأَنَّمَا الْكَوْنُ أَمْسَى الْمَهْدَ يَحْضُنُهُ
وَصَاغَتِ الشَّمْسُ مِنْ لَأَلَائِهَا حُلَاً
وَاسْتَلْهَمَتْ أَعْيُنُ الْأَيَّامِ كَحُلِّ هُدًى
وَرَقَّ ثَوْبُ اللَّيَالِي بَعْدَ قَسْوَتِهِ
وَصَمَّقَ الْبَحْرُ وَالْأَمْوَاجُ مُطْرِبَةً
وَهَامَتِ النَّحْلُ بِالْأَزْهَارِ سَاجِعَةً
حَتَّى الْحَصَى كَبُرَتْ شَوْقاً بِيَعْتِيهِ
وَسَارَتِ الرِّيحُ بِالْبُشْرِى مُعْطَرَةً
وَجَاءَ يَحْمِلُ لِلْأَرْوَاحِ بِلَسْمِهَا
فَاعْتَقَ النَّفْسَ مِنْ أَغْلَالِ شِقْوَتِهَا
فَاشْرَقَتْ مِلَّةُ التَّوْحِيدِ سَاطِعَةً
وَبَثَّ فِي الْأَرْضِ عَدْلاً سَاطِعاً عَسلاً
سَقَى الْوُجُودَ عُلُوماً غَيْرَ فَانِيَةٍ
صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى الْمُخْتَارِ مَا بَزَعَتْ
وَالِهِ الطُّهْرَ مَنْ زَانُوا الزَّمَانَ هُدًى
مَنْ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْتَصَمُوا
يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ يَا غَوْثاً لِمُنْكَسِرٍ
إِلَّيَّ أَتَيْتُكَ بِالشَّعَارِ يَمْلُؤُهَا
فَاشْفَعْ لِعَبْدٍ جَنَى فِي الدَّهْرِ زَلَّتْهُ
وَأَقْبَلَ قَوَافِي كَيْ أَحْظَى بِمَكْرَمَةٍ

تَزْفُ بِشِرَاهُ كَيْ تَسْتَبْشِرَ الشَّجَرَا
وَتَكْتَسِي الرَّابِيَاتُ الثَّوْرَ وَالزَّهْرَا
فَلَمْ يَدْعُ رُبُوعٌ إِلَّا وَقَدْ سَحَرَا
وَيَغْزِلُ الشَّرْقُ حَتَّى يُدْحِضَ الْخَطَرَا
لِكَيْ تُضِيءَ بِهَا الْأَيَّامُ وَالْعُصْرَا
وَيَطْرِبُ الدَّهْرُ مَشْغُوفاً بِمَا نَظَرَا
وَصَارَ كُلُّ جَمَادٍ يَسْكُبُ الْعِطْرَا
وَعَانَقَتْ ظَنِيَّةُ الصَّحْرَاءِ مَا زَهَرَا
وَالْوَحْشُ فِي جُحْرِهِ بِالْبُشْرِى قَدْ سَكَرَا
وَكُلُّ ذَرَاتٍ هَذَا الْكَوْنِ قَدْ زَهَرَا
وَأَبْشَرَ الْوَحْشُ فِي الْأَكَامِ مَنْ حَضَرَا
وَيَرْفَعُ الْأَسْرَ عَنْ عَقْلِ قَدْ انْكَسَرَا
وَأَعْمَرَ الْقَلْبَ بِالْإِيمَانِ وَانْتَصَرَا
فَلَمْ تَدْعُ جَاهِلٌ إِلَّا وَقَدْ بَصُرَا
فَلَمْ يَدْعُ ظَالِمٌ فِي الْأَرْضِ قَدْ قَهَرَا
فَأَوْرَقَ الْعُودُ بَعْدَ الْمَحَلِّ وَازْدَهَرَا
شَمَسُ الضِّيَا لِلْوَرَى أَوْ نُورُهَا اسْتَنَرَا
وَصَحِيهِ كُلِّ مَنْ لِحَقِّ قَدْ نَصَرَا
بِالْحَقِّ حَتَّى جَلَوْا عَنْ دَرْبِنَا الْكَدَرَا
إِذَا الْعُصَاةُ أَتَوْا وَالْخَطْبُ قَدْ جَسُرَا
وَجَدُ يُورِّقُ قَلْبِي كُلَّمَا دُكِرَا
يَلُودُ بِالظِّلِّ إِذْ مِيزَانُهُ حُشِرَا
حَتَّى أُنَالَ بِهَا الرِّضْوَانَ وَالظَّفَرَا

السيرة النبوية وشبهات المستشرقين

محمد فرمان الندوي

من الشبهات التي أثارها المستشرقون حول السيرة النبوية أن اسم محمد ليس اسماً محموداً ، بل هو اسم مذموم ، فقال مارغوليث : إن اسم محمد هو Mahound – Mohemet معناه ملك الظلام ، وقال مستشرق آخر: كان محمداً راهباً مسيحياً (Cardinal) ، وكان يتمنى أن ينتخب قساً (Pope) ، ولم تتحقق أمنيته فقطع صلته من الكنيسة الرومية ، واخترع ديناً جديداً باسم الإسلام ، وقال آخر : إنه كان رسول الأتراك ، هكذا أبدى المستشرقون نظرات متباينة عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

الواقع أن اسم محمد سمّاه جد النبي صلى الله عليه وسلم عبد المطلب ، رجاء أن يُحمد ويُثنى عليه ، وحقق مدح من الله عز وجل ومن الناس بطيب خلقه وحسن سلوكه ، وقد رفع الله شأنه ، فجعله جامع الفضائل والشمائل ، وقد قرن الله اسمه باسمه في الكلمة الطيبة ، وشق له من اسمه ليعزه ، فذو العرش محمود ، وهذا محمد ، وقد تقنن بعض الأدباء في حروف محمد صلى الله عليه وسلم فقال : الميم يدل على المحبة الدائمة ، والحاء يدل على الحياة الأبدية ، والdal يدل على دواء القلب ، وعلاج الروح ، فليس في العالم أحد يُذكر اسمه في الأذان والإقامة إلا اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس في العالم أحد أعطاه الله المقام المحمود ، واللواء المعقود إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، وجميع العلماء والدعاة تخرجوا في مدارس دينية ، لكن محمداً صلى الله عليه وسلم تلقى علمه من فوق سبع سماوات ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وعلمه ربه فأحسن تعليمه ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم عظيم الأخلاق ، جم الفضائل ، كريم الشمائل ، قمة الخصائل ، وكان نهاية ما تصبو إليه النفوس ، وذروة ما تتوق إليه القلوب ، وغاية ما تنتهي إليه الرسالات والنبوات .

هذا النبي المصطفى ، والرسول المجتبي الذي أرسله الله تعالى إلى الناس كافة نبياً ورسولاً ، وبعثه إلى الإنسانية سراجاً منيراً ، وقد شهد بكماله وجماله وجلاله القاصي والداني ، والصديق والعدو ، وهذا المحبوب الذي اتهمه أهل مكة بأنه شاعر وكاهن وساحر ومجنون ، والذي سماه الكفار بأنه الأبتروالأخدج بحيث لا تستمر ذريته بعد ما توفي أبناءه ، لكن رغم كيد الكائدين وبغض المبغضين انتشرت ذريته في

العالم كله ، وبلغ أتباعه ربع سكان الأرض ، هذا إن دل على شيء فإنما يدل على بقاء رسالته وخلوده إلى يوم القيامة ، فتوجيه التهم المضلة والأقوال الشاذة إلى النبي صلى الله عليه وسلم دليل على بغض وعداوة المستشرقين من الإسلام (قَدْ بَدَتْ أَلْبَعْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) .

وقد كتب العلامة شبلي النعماني في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أن مؤرخاً شهيراً في فرنسا قال بكل وقاحة : إن أبا طالب كان يريد إذلال ابن أخيه محمد ، فكان يكلفه لرعي الأغنام ، سبحان الله ! إن أبا طالب كان عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان والد النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله وأبو طالب أخوين شقيقين ، رغم أن أبناء عبد المطلب كانوا من زوجات أخريات ، فكان أبو طالب يحب محمداً صلى الله عليه وسلم حبا جما ، وكان لا يفارقه أبداً ، وإذا سافر ذهب به في سفره ، وقد سافر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معه إلى الشام مرتين ، وقد قرأ أبو طالب في عقد قرانه مع السيدة خديجة خطبة النكاح ، وكان مواسياً ومؤزراً للنبي صلى الله عليه وسلم في كل مرحلة من مراحل حياته منذ طفولته إلى وفاته ، فكيف يُتصور أن أبا طالب كان يريد إذلال محمد صلى الله عليه وسلم .

إن رعي الأغنام كان عملاً شريفاً في العرب ، فكانوا يرعون أغنامهم ومواشيهم ، ويسرحون بها إلى المراعي والمزارع ، وكان هناك نظام لاستئجار المواشي ، وقد رعى النبي صلى الله عليه وسلم الأغنام حينما كان في بني سعد عند السيدة حليلة السعدية ، ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يرعى الأغنام على قراريط ، وهي نوع من الدراهم والدنانير ، وقد أشار الله تعالى إلى حضارة العرب هذه في القرآن الكريم : (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) [النحل : ٦] .

وقد أثار المستشرقون عن النبوة والرسالة تساؤلات كثيرة أنها نتيجة لضرب من الخيال (Auto Suggestion) أو رؤيا شيطانية ، وكان محمد يحلم كثيراً ، ويزعم أنه يُوحى إليه ، رغم أنه افتراء ، وقد ربى محمداً حمالة بيضاء ، وعلمها تعليماً ، وهي جالسة على كتفه ، وكانت تتناول حيناً لآخر حبوباً غذائية إزاء أذنه ، وكان محمد يشعر الآخرين أن الملك الإلهي جبرئيل يوحى إليه ، ويملي عليه (نعوذ بالله من هذا الهراء) وقد وصف بعضهم كيفية نزول الوحي بداء الصرع (اضطراب عصبي مزمن) ، وكان يقول : إن محمداً قد تعود أن يقول للناس بعد إفاقة من نوبة قلبية تصيبه أنه كان في حالة نزول الوحي ثم كان يتلو عليهم

آيات من عند نفسه ، أستغفر الله من هذا الهذيان ، وقد وصف بعضهم النبوة أنها مقتبسة من تعليم بحيرا الراهب الذي اجتمع به محمد صلى الله عليه وسلم خلال سفره إلى الشام .

ولا شك أن النبوة والرسالة موهبة إلهية ، يكرم بها الله من يشاء من عباده (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) [الأنعام : ١٢٤] ، ولم يكن الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم بدعا من الرسل ، بل جاءت آلاف مؤلفة من الرسل والأنبياء في شتى الأمكنة والأزمنة ، فالاستفسار عن النبوة والرسالة نوع من المكابرة والمعاندة ، ودليل على الضغينة والحقد الداخلي ، وأما ما يقال عن تعلم النبي صلى الله عليه وسلم من بحيرا الراهب ، فكان لقاء النبي صلى الله عليه وسلم بالراهب في السنة الثانية عشرة من عمره ، وهذه سن لا يستطيع الإنسان أن يستوعب المسائل الدينية كلها ، وكان عم النبي صلى الله عليه وسلم معه ، لا يفارقه ، فكيف أمكن لبحيرا أن يعلم أطفل الصغير جميع ما عنده من العلوم في جلسة واحدة .

وهناك شبهة أخرى وهي أن محمداً استبدل عبادة وثنية بوثنية أخرى ، فقد أمر أتباعه أن يطوفوا حول الكعبة ، وهي من الحجارة ، ويأمرهم برمي الجمرات ، كما أمرهم بتقبيل الحجر الأسود ، هذه الشبهة أيضاً نشأت من قلة إلمام بالشريعة وجهالة المعارض ، الواقع أن الطواف بالبيت والصفاء والمرورة ورمي الجمار ظل لإقامة ذكر الله ، فالطائف حينما يطوف بجسده فإن قلبه وروحه متجهان إلى الله تعالى ، وصدق من قال : طاف الجسد بالبيت ، وطاف القلب برب البيت ، وأما رجم الشيطان في الحج فهي رياضة روحية للمؤمنين ، فإنه يتذكر الحرب والرجم للشيطان ويتمثل به ، لكنه في الحقيقة يرمي الشيطان وتظهر آثاره في تعاملاته وسلوكياته في الحياة المستقبلية ، وأما تقبيل الحجر الأسود فقد كان إحياء لسنة النبي صلى الله عليه وسلم مع معرفة تامة بأنه حجر لا يضر ولا ينفع ، وإن يسلب الذباب شيئاً لا يستنقذه ، فالطواف والرجم وتقبيل الحجر الأسود لم يكن إلا رمزا وتدريباً على الغاية الحقيقية ، وليس هو المقصود بذاته ، وقد رأينا الجندي يتدرب على تمثال من ورق ، يطعنه ويصرخ ، فليس هذا سخفاً وهذا .

هذه نبذة من ثرّهات وخزعبلات المستشرقين الذين لا يألون جهداً في الصاق الشبهات والشكوك بالإسلام ، وقد أنشأوا تحقيقاً لهذا الغرض مؤسسات ومنظمات ، فلا يزالون ييثون سمومهم في كتاباتهم وينشرونها

على مستويات مختلفة ، وقد ساعدتهم في هذا الزمان على نشر هذه الافتراءات أجهزة الإعلام والمواقع الإلكترونية المعاصرة ، والتاريخ يشهد أن علماء الإسلام لم يكونوا غافلين عن مواجهة هذه الفتنة العمياء ، فقد قيض الله في هذه الآونة علماء ندوة العلماء بوجه أخص فإنهم تناولوا هذا الموضوع بجدية وإتقان ، ودرسوه دراسة واعية عميقة ، وكان في مقدمة هذه السلسلة الذهبية العلامة شبلي النعماني الذي فنّد آراء جرجي زيدان ونظراته بدلائل ساطعة وبراهين قاطعة ، وذلك أن جرجي زيدان حينما ألف كتابه تاريخ التمدن الإسلامي ، وصوّر فيه جانباً واحداً من المجتمع الإسلامي ، وترك جوانب مشرقة ، ونواحي بارزة رفع اللثام عنها الكاتب القدير والعالم الألمعي والمفكر اللوذعي الشيخ شبلي النعماني ، ودحض جميع الشبهات والشكوك المثارة ضد المجتمع الإسلامي ، وإن دراسته البحثية حول الموضوع تُعرف بالانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي ، وقد نشرت في مجلة المنار المصرية التي كان يرأس تحريرها العلامة رشيد رضا رحمه الله ، فقد نشر هذه الدراسة باعتناء بالغ ، ثم واصل العلامة شبلي النعماني هذه المسيرة العلمية ، فكشف كل ما كتب المستشرقون الحاقدون على الإسلام حول القرآن والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي ، وقد تبعثت آراؤه النقدية في موسوعة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومقالاته العلمية الأخرى ، وقد مشى على هذا الدرب العلمي خلفه وتلميذه النابغ العلامة السيد سليمان الندوي فإنه كتب سلسلة من الدراسات والكتابات العلمية في مجلة معارف الشهرية الصادرة من دار المصنفين بأعظم جراه ، وقد جمعت هذه الدراسات باسم : مقالات سليمان ، كما توجد نظراته العلمية في تاريخ أرض القرآن وتكملة سيرة النبي وغيرها من الكتب العلمية .

والجدير بالذكر أن دار المصنفين بأعظم جراه قد عقدت ندوة علمية حول " الإسلام والمستشرقون " في رحاب دار المصنفين عام ١٩٨٢م ، حضرها أقطاب العالم الإسلامي وأهل العلم والدراسة ، وقد قاد هذه المسيرة العلامة الإمام السيد أبو الحسن علي الحسن الندوي ، وقدم فيها بحثاً قيماً ، نُشر باسم " الإسلام والمستشرقون " ، ولا ننسى جهود المجمع الإسلامي العلمي بل كناؤ الذي يعمل تحت إشراف وتوجيه الإمام أبي الحسن علي الحسن الندوي منذ ١٩٥٩م ، فإنه أثنى المكتبة الإسلامية بترائيه العلمي ومؤلفاته القيمة في أربع لغات : العربية والأردية والهندية والإنجليزية ، هذا ما أنجزه أسلافنا الكرام ، كأنهم يقولون :
هذه آثارنا تدل علينا
فانظر بعدنا إلى الآثار

الإنسان والإيمان

الأخ السيد عبد العلي الحسني الندوي*

منذ أن وضع الإنسان الأول قدميه على هذا الكوكب المستدير ، كانت هناك علاقة قوية عريقة ، وصلة وثيقة بين الإنسان والإيمان ، صلة تضرب بجذوره في أعماق التاريخ الذي يعود إلى سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام . فلم تخل مرحلة من مراحل التاريخ إلا ظل الإنسان فيها مقبلاً على إدراك حقيقة غيبية متعالية ؛ حقيقة تدير هذا الكون وما فيه من الخلائق ، من كائنات حية وغير حية ، بدرجة عالية وتقدير قويم ، وتحل عقدة خلق الإنسان والدور الذي وكل إليه وأنيط به في هذا العالم ، وترشد الإنسانية إلى الحياة الخالدة الموعودة وراء هذه الدنيا العابرة المحدودة .

والحقيقة عينها أدت دوراً قيماً وأساسياً في تطوير القيم والمبادئ الإنسانية العالمية وتغييرها تغييراً جذرياً حسب المقتضيات في مختلف أدوار التاريخ . ومن خلال هذه الحقيقة ذاتها ، تمكنت الإنسانية من كشف علة الوجود الإنساني في هذا الكون ، وغايته المنشودة ، وكيفية الربط بين الخالق والمخلوق ، وأهمية هذه الصلة .

والواقع أن الإيمان بالغيب ، مع أنه الأساس الذي قامت عليه جملة تفاصيل الإيمانيات ، ظل منذ بداية الإنسانية من الجيلة التي فطر الله تعالى البشرية عليها ، كما قال سبحانه : (فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [الروم : ٣٠] .

وقد غرست هذه المعرفة في ذواتهم وأرواحهم حين اعترفوا وأقرّوا بالشهادة عند الله تعالى ، حيث يذكر القرآن الكريم ميثاق "ألسنت" ، فيقول سبحانه : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) [الأعراف : ١٧٢] .

والإنسان هو الخلق الوحيد الذي اضطلع بعبء الأمانة المفوضة إليه من بين المخلوقات كلها ، قال جل وعلا : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا

* الباحث في مركز الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي براى بريلي ، الهند .

جَهُولاً) [الأحزاب : ٧٢] .

فأنعم الله سبحانه وتعالى علي الإنسان بنعم وآلاء لا تُعد ولا تُحصى ، كما قال تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) [إبراهيم : ٣٤] ، وكرّر في سورة الرحمن ذكر نعمه وآلائه على عباده ، فقال سبحانه : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) [الرحمن : ١٣] .

ولم يدعه في أي حقبة من حقب الزمان دون هداية وتوجيه ، بل بعث الأنبياء والمرسلين ورجال الدعوة والعزيمة في كل زمان ومكان ، ليجددوا في القلوب الذاوية روح الإيمان ، ويرشدوها إلى الإسلام من جديد ، فقال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل : ٣٦] . وقال في موضع آخر : (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) [فاطر : ٢٤] .

وأنزل الصحف والكتب السيمائية ، وجعلها وافرة النفع ، يسيرة التناول ، فقال سبحانه : (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) [القمر : ١٧] . وجعل كلامه ميسراً للإنسانية لتقرأه وتفهمه وتعمل به ، وهي مئة عظيمة جليلة من الله بها على الإنسانية جمعاء ؛ لأن كلام الله قوي جبار ، ذو وزن جسيم ، لو أنزل على الجبال لتواضعت وتصدعت ، ولم تستطع تحمّل ثقله ، كما قال سبحانه : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) [الحشر : ٢١] .

ولكن الله تعالى خلق الإنسان في طور يمكنه من تحمّل كلامه القوي المتين الرصين ، وجعله ميسراً له بلسان نبيه الحبيب ، أفضل الأنبياء والرسل ، صلوات الله وسلامه عليه ، فقال سبحانه : (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدَّا) [مريم : ٩٧] .

ولكن ، مع أن الله سبحانه وتعالى بعث الأنبياء والمرسلين في كل فترة من فترات التاريخ ، وأن المصلحين والمجددين الذين حملوا رايتهم قاموا بنشر تعاليم الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، ومع ما أمطر الله على عباده من شآبيب النعم والمنن ، كان الصراع بين الحق والباطل مستمرا منذ البداية ؛ إذ كان ، في جانب ، أهل الحق وأنصارهم ، يمارسون مهامهم على نحو دؤوب لتوجيه الإنسانية نحو الصراط المستقيم ، في ظل التعاليم التي جاء بها الأنبياء والرسل ، وبمساعدة فطرتهم السليمة ؛ وفي جانب آخر أتباع الباطل وأعوانه ، تحت وطأة الوسواس الشيطانية المقترنة بالنزوات الدنيئة للنفس الأمّارة ، يكيّدون مكائدهم بلا هوادة لإزاحة الإنسانية عن الجادة السوية ، وتحويلها نحو الظلمة والانحراف .

قال تعالى : (وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [آل عمران : ٥٤] . وقال

سبحانه : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) [يوسف : ٥٣] .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم بكل وضوح وجلاء في الحديث
القدسى : " إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَنْتَهُمُ الشَّيَاطِينُ
فَاجْتَالَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ " (صحيح مسلم : ٢٨٦٥) .

ولما كشفنا الغطاء الجليدي عن غابر الزمان ، وأطللنا في أعماق
الأنقاض والدمن للحضارات العريقة ، ونقبت عدساتنا بين الأطلال
الصامته عن بوارق الحياة وبصمات المدنيات ، فإن أول المؤشرات الظاهرة
التي بدأت تطفو على السطح في غالب الأحيان هي المعابد والكنايس
والآديرة ، التي طالما برزت بأشكالها وأحجامها المختلفة في بقايا المدنيات
الأسطورية السحيقة والمستوطنات البشرية القديمة ، كلها أو جلها .

ولكن مهما تكن معتقداتهم الدينية ، وأساليب عبادتهم ،
ومفاهيمهم عن الإله ، سواء أكانت مبنية على الحق والوحي الإلهي
والفطرة السليمة ، أم قد حرفتها التوهيمات والخرافات ، فإن حقيقة
واحدة تظهر بشكل لا لبس فيه ، ويأخذها كل مؤمن وملحد بعين
الاعتبار ، وهي استمرار الإنسان في تقديس قوة إلهية تتعالى عن عالم
المحسوسات . وهذا التقديس يشهد عليه ما خلفته الحضارات التي
انكشفت آثارها بعد .

سواءً أتفحصنا مخلفات حضارة الرافدين ، أم درسنا سجلات
مصر القديمة ، وحفرنا تحت أهراماتها ، وفتشنا ما حولها من معابد
ضخمة وتماثيل منحوتة فادحة ، أم بحثنا مكشفات أثرية خلاصة لحضارة
وادي السند الأيقونية ، أم طالعنا المسارح الرومانية والمدرجات اليونانية ،
وما يجاورها من معابد ملأتها التماثيل والأصنام ؛ فالحق يدوي صداه بلا
كلل ولا ملل : ألا وهو أن الإنسانية لم تكن في أي مرحلة من مراحل
التاريخ ، وفي أي فترة من فترات ، وفي أي ناحية من نواحي العالم ،
منعزلة تماماً عن الخضوع والاستسلام أمام قوة أزلية سرمدية تدبر
الكائنات كلها .

ورغم أن المعتقدات في بعض الأماكن تظهر في صورتها النقية
الأصيلة ، وفي أماكن أخرى وهنت وتخبطت في مظاهر مبدلة ومنحرفة من
صور التماثيل والأصنام وأنواع الشرك والظلام فإن هذا التصور الإلهي ، مهما
يكن من أمره ، متجذر في أعماق التاريخ البشري على نحو من الأنحاء .
صدق الله تعالى حيث قال : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ) [الزمر : ٢٨] ، وقال : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) [الزخرف : ٨٧] .

أشهر الحماسات : دراسة مقارنة

(حماسة أبي تمام ، حماسة البحتري ، الحماسة الشجرية ، الحماسة البصرية)

الأخ تهذيب عالم بن عبد الرزاق الندوي *

كان عصر العباسيين عصرًا ملائمًا لتدوين دواوين الأشعار وتأليف مجموعاتهما ، وأول اختيار مدون عند العرب القصائد المعروفة بالمعلقات ، اختارها محمد بن سابور بن المبارك المعروف لحماة الراوية (٩٥ - ١٥٥هـ / ٧١٤ - ٧٧٨م) ، فقد اختار من مطولات العرب الجاهليين المعروفة بالمعلقات مجموعته التي سماها " السموط " ، ولا نعرف له دافعاً دفعه إلى اختيار هذه القصائد وتسميته إياها بالسموط إلا نفاستها واستجاءته إياها . ونحا نحو حماد أبو العباس المفضل بن محمد الضبي في مفضلياته ، والأصمعي في أصمعياته ، وأبو زيد القرشي في جمهرته ، ومحمد بن مبارك بن محمد بن ميمون في منتهى طلبه ، وابن دريد في شوارده ، وما إلى ذلك من مجموعات فهرستها طويل . واستمر الاختيار حتى عصر النهضة الحديثة ، فبرز في مختارات البارودي ، وبعد ذلك " المختارات الشعرية " لعلي بن عبد الله آل الثاني ، ومستمر هذا الاختيار إلى الآن كما سيستمر في المستقبل^١ .

على كل حال ، كثرت المجموعات والمختارات الشعرية ، غير أن أبا تمام (ت ٢٣١هـ) يُعدُّ أول من ابتكر " الحماسة " بصورتها المعروفة ، فاختار المقطوعات الشعرية ورتبها ترتيباً جديداً ، فنالت حماسته قبولاً واسعاً . ثم اقتفى أثره البحتري (ت ٢٨٤هـ) ، مع إبداعه بعض الخصائص الخاصة ، وتبعه ابن الشجري (ت ٥٢٤هـ) متأثراً بمنهجه . كما جاءت الحماسة البصرية على نهج هذه الحماسات ، وتُعدُّ من أشهر المختارات الشعرية بعدها . ثم ظهرت حماسات ومختارات أخرى رُتبت على نهج الحماسات ، وإن لم تُسمَّ جميعها بهذا الاسم ، مثل الحماسة المحدثه لابن

* قسم التدريب العلمي بدار العلوم لندوة العلماء ، لكناؤ - الهند .

١ الحماسة الشجرية ك ، بتغيير يسير وإضافة .

فارس ، والحماسة العسكرية لأبي هلال العسكري ، والتذكرة السعدية لمحمد بن عبد الرحمن .

تعريف الحماسة لغةً واصطلاحاً :

الحماسة لغةً : الاشتداد ، من قولهم : حمس الشترُ والأمرُ أي اشتدَّ ، وتحامس القومُ تحامُساً وحماساً : تشادوا واقتتلوا .

والأحمس من الرجال : الورع الذي يتشدد في دينه ، والشديد الصلب في القتال ، ويُراد بالحماسة أيضاً : الشجاعة^١ .

والحماسة في عالم الأدب : اسم مجازيٍّ لمجموعة من المختارات الشعرية ، سميت به من قبيل تسمية الكل باسم الجزء ، لأن الباب الأول من هذه المختارات يضم قصائد ومقطوعات في الشدة والشجاعة .

الفرق بين الحماسة وغيرها من المختارات : الحماسة هي نوع شعريٍّ محدّد ، بينما المختارات الشعرية هي تجميع القصائد من مختلف الأنواع والأغراض^٢ .

نظرة على مؤلفي الحماسات الأربع :

أبو تمام : هو حبيب بن أوس الطائي (١٨٨ - ٢٣١هـ) ، أحد كبار شعراء العصر العباسي ، وُلد بجاسم قرب دمشق ، ونشأ محباً للشعر والأدب . رحل إلى مصر ثم بغداد وخراسان ، ونال منزلة رفيعة عند الخليفة المعتصم . اشتهر بقصيدته في فتح عمورية : " السيف أصدق أنباء من الكتب " ، وامتاز شعره بعمق المعاني وكثرة الصور البيانية ، وكان من رواد التجديد في الشعر العباسي . ومن أشهر مؤلفاته : ديوان الحماسة ، والوحشيات ، وديوانه^٣ .

^١ انظر : الصحاح ، ولسان العرب ولغات أخرى ، والحماسة الشجرية : ي ط ، وشرح ديوان الحماسة لأبي تمام للتبريزي ص ١٣ و ١٤ ، وللمرزوقي ، ص ١٩ .

^٢ مستفاد من كتاب " دراسة في حماسة أبي تمام ، ص ٧ ، ومقدمة ديوان الحماسة ، ص ١٠ - ١٥ ، والحماسة البصرية ، ص ١ - ٣ .

^٣ انظر لترجمته : وفيات الأعيان ١٧/٢ ، ومختصر تاريخ دمشق ١٧٨/٦ ، والبداية والنهاية ٣٠٤/١٠ ، ووفيات الأعيان ١٧/٢ ، ومعجم البلدان ٩٤/٢ ، وتاريخ بغداد ١٦٢/٩ ، وسير أعلام النبلاء ٦٧/١١ ، وتاريخ الطبري ١٩٢٥/٥ ، نزهة الألباء ، ص ١٥٦ ، وغيرها من الكتب .

البحتري : هو الوليد بن عبيد الطائي (٢٠٦ - ٢٨٤هـ) ، من أبرز شعراء العصر العباسي وتلميذ أبي تمام . وُلِدَ بمنبج ، ثم انتقل إلى بغداد واتصل بالخلفاء ، ولا سيما المتوكل . امتاز شعره بسهولة اللفظ ، وعذوبة الأسلوب ، وروعة التصوير ، وبرع في المديح والوصف والغزل . ومن آثاره : ديوانه ، والحماسة ، ومعاني الشعر^١ .

ابن الشجري : هو الشريف ضياء الدين هبة الله بن علي الحسني (٤٥٠ - ٥٤٢هـ) ، عالم لغوي ونحوي وأديب من بغداد . تولى نقابة الطالبين ، وتتلّمذ عليه كثير من العلماء ، وعُدَّ من أئمة العربية . ومن أشهر مؤلفاته : الأمالي ، وشرح اللمع ، وشرح التصريف الملوكي ، وكتاب الحماسة^٢ .

صاحب الحماسة البصرية : هو صدر الدين أبو الحسن علي بن أبي الفرج البصري ، من أدباء القرنين السادس والسابع الهجريين . اشتهر بتأليف الحماسة البصرية التي تُعدُّ من أهم كتب المختارات الشعرية بعد حماسة أبي تمام والبحتري وابن الشجري . كما ألف المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية ، وُثِرَ جُحُّ وفاته سنة ٦٥٩هـ^٣ .

دراسة عامة للحماسات الأربع :

حماسة أبي تمام :

تُعدُّ حماسة أبي تمام من أشهر كتب المختارات الشعرية في التراث العربي ، وقد ألفها أبو تمام أثناء إقامته في همذان عندما حالت الثلوج بينه وبين متابعة رحلته ، فأقبل على مطالعة الكتب واختيار أروع ما وقع عليه من شعر العرب ، فجمع مختاراته في كتاب اشتهر باسم الحماسة ، وأصبح نموذجاً يُحتذى في كتب المختارات الشعرية .

امتازت الحماسة بمنهج جديد لم يسبق إليه أحد : إذ لم يقتصر

١ الأغاني ٣٦/٢١ ، وجمهرة أنساب العرب ، ص ٤٠١ ، معجم الأدباء ٢٧٩٦/٦ ، ووفيات الأعيان ٢١/٦ ، وتاريخ بغداد ٤٥١/١٣ ، ٤٥٢ ، ومعجم البلدان ٧٢٣/٢ ، ومعجم الأدباء ٢٧٩٨/٦ ، وسير أعلام النبلاء ٤٨٧/١٠ .

٢ سير أعلام النبلاء ، ج ١٩٤/٢٠ ، نزهة الألباء ، ص ٤٠٤ ، وفيات الأعيان ٤٥/٦ - ٥٠ ، البداية والنهاية ٢٢٣/١٢ ، إنباه الرواة على أنباء النحاة ٣٥٦/٣ ، ومعجم الأدباء ٢٧٧٥/٦ ، نزهة الألباء ، ص ٤٠٦ ، وشذرات الذهب ٢١٥/٦ .

٣ كشف الظنون ١١٦/٣ ، والحماسة البصرية ، ص ٢١ - ٢٤ ، والأعلام للزركلي ٣١٩/٤ .

أبو تمام على جمع القصائد الطويلة كما فعل أصحاب المفضليات والأصمعيات ، بل اختار أجود الأبيات والمقطوعات وفق ذوق نقدي رفيع ، ثم رتبها حسب الموضوعات والمعاني . ويُعدّ بذلك رائداً في تبويب الشعر العربي وتصنيفه على أساس الأغراض الأدبية .

قسم أبو تمام كتابه إلى عشرة أبواب هي : الحماسة ، والمراثي ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ، والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . وقد ضمّ الكتاب ٨٨١ مقطوعة وقصيدة ، اشتملت على آلاف الأبيات المختارة من شعر الجاهليين والإسلاميين وغيرهم .

وتتبع أهمية الحماسة من دقة الاختيار وجودة الانتقاء ، حتى قيل : " كان أبو تمام في اختياره أشعر منه في شعره " . كما أصبحت مصدراً أساساً للعلماء واللغويين والنقاد ، واعتمدوا عليها في الاستشهاد اللغوي والأدبي ، حتى صاروا يقولون : " هذا بيت من الحماسة " فيُكتفى بذلك دلالة على الثقة بصحة روايته .

ولقيت الحماسة عنايةً كبيرةً من العلماء ، فكُتبت عليها شروح كثيرة تجاوزت خمسة وعشرين شرحاً ، ومن أشهرها شروح المرزوقي والتبريزي . وبفضل قيمتها الأدبية والعلمية بقيت حماسة أبي تمام أهمّ كتب الحماسات وأشهرها ، وأثّرت في جميع المختارات الشعرية التي ألّفت بعدها **حماسة البحتري :**

تُعدّ حماسة البحتري من أبرز كتب المختارات الشعرية التي جاءت امتداداً لحماسة أستاذه أبي تمام ، وقد ألّفها الشاعر أبو عبادة البحتري للفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل . وقد سار فيها على نهج أبي تمام في اختيار الشعر ، إلا أنه تميّز بمنهج خاص في التبويب والتنظيم يعكس ذوقه الأدبي ونظرته النقدية . وجمع البحتري في حماسته مختارات من الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي ، ولم يقتصر على الشعراء المشهورين ، بل اعتنى كذلك بشعر المقلين المجيدين ، ولم يُدخل في كتابه شيئاً من شعره ،

^١ كشف الظنون ١٢٣/٣ - ١١٤ ، وشرح الحماسة للتبريزي ١١/١ ، أخبار أبي تمام ، ص ١١٨ ، وشرح الحماسة للمرزوقي ١٤/١ ، حماسة أبي تمام وشروحها ، ص ٣٢ - ٣٣

التزاماً بالأمانة العلمية والتجرد في الاختيار . وكان يميل إلى اختيار الشعر السهل العذب ، الواضح المعاني ، البعيد عن الغريب والتكلف . واختلفت حماسة البحتري عن حماسة أبي تمام في طريقة التبويب ؛ إذ لم يقسمها إلى أغراض شعرية عامة ، وإنما جعلها في مائة وأربعة وسبعين باباً ، خصص كل باب لمعنى جزئي أو خُلِق أو حالة معينة ، وقد وزع أبيات القصيدة الواحدة على أكثر من باب حسب اختلاف معانيها . وبلغت مختاراتها ١٤٦٢ مقطوعة بين قصائد وأبيات ومقطوعات .

وتتبع أهمية هذا الكتاب من اشتماله على عدد كبير من النصوص الشعرية النادرة ، وحفظه أشعار كثير من الشعراء الذين لم تصل إلينا دواوينهم ، كما يُعد مصدراً مهماً لدراسة القيم الأخلاقية والاجتماعية والفنية في الشعر العربي . وقد امتاز بحسن الترتيب ، ودقة الاختيار ، وسلامة الذوق ، مما جعله من أهم كتب المختارات الشعرية في الأدب العربي ورغم مكانته العلمية ، فإن حماسة البحتري لم تنل من الشهرة والعناية ما نالته حماسة أبي تمام ، ولذلك قلت شروحها في التراث . وقد طبعت عدة مرات اعتماداً على مخطوطاتها ، واهتم بها عدد من الباحثين والمستشرقين ، وبقيت تمثل مرحلة مهمة في تطور كتب الحماسات ، وتكشف عن شخصية البحتري الناقد إلى جانب مكانته الشعرية ^١ .

الحماسة الشجرية :

تُعدُّ الحماسة الشجرية من أبرز كتب المختارات الشعرية في التراث العربي ، ألفها ابن الشجري متأثراً بحماسة أبي تمام ، مع إظهار شخصيته العلمية والنقدية في الاختيار والترتيب . وقد ضمَّ الكتاب مختارات من شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وشعراء العصر العباسي ، مما جعله مرجعاً مهماً في الأدب العربي .

رُتّب ابن الشجري كتابه في تسعة أبواب ، وهي : الشدة والشجاعة ، واللوم والعتاب ، والمراثي ، والمديح ، والهجاء ، والأدب ، والنسيب ، والصفات والتشبيهات ، والملح . ويُعدُّ باب الصفات والتشبيهات

^١ كتاب في تاريخ الأدب الجاهلي ، للدكتور علي الجندي ، ص ١٦٦ ، والبحتري : حياته وشعره بتعديل يسير ، والحماسة للبحتري ، ص ٨ و ٩ ملخصاً .

أوسع أبواب الكتاب ، إذ اشتمل على أوصاف النساء ، والطبيعة ، والليل ، والنجوم ، والمياه ، والسحاب ، وآلات الحرب ، والكتب ، والشيب والشباب ، والخمر ، وغير ذلك من التشبيهات والصور البلاغية . وقد اشتملت الحماسة الشجرية على ٩٤٤ مقطوعة وقصيدة ، وعدد أبياتها : (١٣١٠) أبيات ، اختيرت من شعر ٣٦٥ شاعراً تقريباً ، مما يدل على سعة اطلاع مؤلفها وحسن اختياره . كما امتازت بتنوع موضوعاتها ، وجمعها بين الجودة الفنية والقيمة اللغوية ، فكانت مصدراً مهماً لدراسة الشعر العربي في عصوره المختلفة . وقد أثنى العلماء على هذا الكتاب ثناءً كبيراً ؛ فقال ياقوت الحموي : " ضاهى به حماسة أبي تمام " ، وقال ابن خلكان : " هو كتاب غريب مليح أحسن فيه " . كما أشاد به غيرهما من العلماء .

وقد وصلت إلينا الحماسة الشجرية في عدد من المخطوطات ، واعتمد المحققون على نسخ محفوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق والمتحف البريطاني ، ثم نُشرت في طبعات علمية محققة ، فبقيت شاهداً على مكانة ابن الشجري في الأدب والنقد ، وأحد أهم كتب المختارات الشعرية في التراث العربي ^١ .

الحماسة البصرية :

تُعَدُّ الحماسة البصرية من أهم كتب المختارات الشعرية في التراث العربي ، ألَّفها صدر الدين أبو الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري ، وأهداها إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز سنة ٦٤٧ هـ . وقد سار على نهج حماسة أبي تمام في جمع مختارات الشعر العربي ، حتى عدّها العلماء من أشهر الحماسات وأوسعها مادة ، وأشادوا بحسن اختيارها وجودة ترتيبها .

قسم المؤلف كتابه إلى أربعة عشر باباً ، هي : الحماسة ، والمديح ، والرثاء ، والأدب ، والنسيب ، والأضياف ، والهجاء ، وصفة النساء ، والصفات والنعوت ، والسير والفعال ، والملح والمجون ، وأكاذيب العرب

^١ معجم الأدباء : ٢٧٧٦/٦ ، وفيات الأعيان : ٤٥/٦ ، الحماسة الشجرية ي ز - ي ح ، التذكرة السعدية ، ص ٦ .

وخرافاتهم ، وملح الترخيص ، والإنابة والزهد . وقد زاد بذلك أربعة أبواب على حماسة أبي تمام ، مما أكسب كتابه تنوعاً واتساعاً في الموضوعات . وتضم الحماسة البصرية ١٦٤٨ مقطوعة شعرية ، اختيرت من شعر ما يقارب خمس مائة شاعر ، وتشتمل على أكثر من عشرة آلاف بيت ، وهو أكبر عدد من النصوص بين كتب الحماسات المعروفة . واعتمد مؤلفها في اختياراته على مصادر أدبية متعددة ، من أبرزها حماسة أبي تمام ، وحماسة البحري ، والحماسة الشجرية ، والأشباه والنظائر للخالدين ، وزهر الآداب للحصري ، والحيوان للجاحظ ، وغيرها من كتب الأدب واللغة .

وقد حظيت الحماسة البصرية بتقدير كبير من العلماء ؛ فأثنى عليها ابن النديم وعدّها من أنفس كتب الأدب ، كما استفاد منها عدد من الأئمة ، مثل عبد القادر البغدادي ، وبدر الدين العيني ، وجلال الدين السيوطي وغيرهم . ورغم ما وقع فيها من بعض الأوهام في نسبة عدد قليل من الأشعار ، فإنها بقيت مصدراً مهماً لدراسة الشعر العربي ورواياته . وقد حفظت في عدد من المخطوطات ، ثم نُشرت في طبعات علمية محققة ، مما أسهم في إبراز قيمتها الأدبية ومكانتها بين كتب الحماسات ^١ .

الموازنة بين هذه الحماسات :

يتناول هذا المبحث الموازنة بين الحماسات الأربع من حيث منهج الاختيار ، وتنظيم الأبواب ، وأبرز الخصائص الفنية والعلمية .

أولاً : حماسة أبي تمام :

تُعد حماسة أبي تمام أول وأشهر دواوين الحماسة ، وتمتاز بحسن الانتقاء ودقة الاختيار ، إذ لم يعتمد شهرة الشعراء ، بل اختار أجود النصوص ، فجمع بين شعر المشهورين والمغمورين ، وتنوعت مختاراته بين القصائد الطويلة والمقطوعات القصيرة ، بل والبيت الواحد أحياناً . كما شملت مختاراته شعر الجاهليين والإسلاميين والأمويين والعباسيين ، وبعض معاصريه ، وجعل باب الحماسة أكبر أبواب الديوان ، مع عناية واضحة بمراثي الشعاعرات .

^١ الكشف ١١٦/٣ ، ومعجم المؤلفين ١٦٥/٧ ، والأعلام للزركلي ٣١٩/٤ ، الحماسة البصرية ، ص ١٩ - ٢٠ ، والحماسة الشجرية ك ط ، ل .

ثانياً : حماسة البحتري :

سار البحتري على نهج أبي تمام ، لكنه توسع في التبويب ، فقسم كتابه إلى (١٧٤) باباً ، وأولى الجانب الأخلاقي والتربوي عناية كبيرة ، فأكثر من المختارات الداعية إلى الفضائل ، وابتعد عن الأشعار المخلة بالحياء . كما أفرد باباً خاصاً لشعر المرأة في الرثاء ، واقتصر غالباً على شعراء ما قبل العصر العباسي .

ثالثاً : الحماسة الشجرية :

مثلت حماسة ابن الشجري مرحلة وسطى بين حماستي أبي تمام والبحتري ، إذ جمعت بين حسن الاختيار والتوسع في التصنيف . واهتمت بالشعراء المحدثين ، ولا سيما أبا نواس وأبا تمام والبحتري وابن الرومي ، مع قلة العناية ببعض كبار شعراء القرن الرابع كالمثني . ومن أبرز خصائصها تقسيم بعض الأبواب إلى فصول ، وإيراد أخبار تمهد للمختارات الشعرية ، وإفراد باب واسع للصفات والتشبيهات .

رابعاً : الحماسة البصرية :

تعد الحماسة البصرية أكبر دواوين الحماسة حجماً ، وقد اعتمدت اعتماداً كبيراً على الحماسات السابقة ، مع إضافة بابي الزهد والإنابة ، والأكاذيب والخرافات . وتمتاز بكثرة مادتها الشعرية ، إلا أن أبرز مآخذها قلة التجديد ، وكثرة النقل ، ووقوع بعض الأخطاء في نسبة الأشعار وترجمة أصحابها .

الخاتمة :

تبين من خلال هذه الموازنة أن حماسة أبي تمام كانت الأصل الذي احتذت به الحماسات اللاحقة ، لما امتازت به من جودة الاختيار وسعة المادة . أما البحتري فقد توسع في التبويب وأبرز الجانب الأخلاقي ، بينما جمع ابن الشجري بين منهجي سابقه وأضاف تنوعاً في الموضوعات والأسلوب ، في حين حفظت الحماسة البصرية قدراً كبيراً من التراث الشعري ، وإن غلب عليها الاعتماد على المختارات السابقة . وتظل هذه الحماسات الأربع من أهم مصادر الشعر العربي ، لما اشتملت عليه من نصوص مختارة تمثل مختلف أغراض الشعر العربي عبر عصوره .

أهم المصادر والمراجع :

١ . الحماسات الأربع ، وشرحاً ديوان الحماسة للمرزوقي والتبريزي .

٢. العمدة في صناعة الشعر ونقده ، أبو الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ أو ٤٦٢ هـ) ، تحقيق : الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
٣. كتاب الصناعتين ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهيل العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي .
٤. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١ م) ، تحقيق : د ، إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، لبنان .
٥. معجم الأدباء ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ٦٢٦ هـ ، تحقيق : د . إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م .
٦. الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة عشرة ، شباط/ فبراير ١٩٩٩ م .
٧. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله ، لندن ، بنتلي .
٨. تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة عشرة .
٩. أبو تمام الطائي : حياته وشعره ، والبحثري : حياته وشعره ، الدكتور هاشم صالح مناع ، دار الفكر العربي ، بيروت .
١٠. مناهج التأليف عند العلماء العرب ، قسم الأدب ، الدكتور مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين بيروت ، لبنان الطبعة السادسة ١٩٩١ م .
١١. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسية) ، الدكتور عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان . الطبعة الرابعة ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م .
١٢. المعجم المفصل في علوم البلاغة ، إعداد : الدكتورة إنعام قوَال عكاوي ، مراجعة : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .
١٣. دراسة في حماسة أبي تمام ، الدكتور علي النجدي ، مكتبة نهضة ، مصر بالفجالة ، الطبعة الأولى ١٩٥٥ م .

ترجمة موسوعة " سيرة النبي " إلى العربية : خدمة علمية جلية

بقلم : الأستاذ طلحة نعمت الندوي *

لا يخفى على أهل العلم المكانة العلمية والتحقيقية التي يحتلها كتاب " سيرة النبي " للعلامتين : الشيخ شبلي النعماني والشيخ السيد سليمان الندوي بين المؤلفات التي ألفت في السيرة النبوية على المستوى العالمي؛ ويعتبر هذا التأليف من الأعمال العلمية المتميزة التي حظيت بمكانة رفيعة في هذا المجال . ولو ألفت هذه الموسوعة آنذاك باللغة العربية ، لذاع صيتها منذ ذلك الوقت ، وانتشرت في أرجاء العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً ، غير أن العلامة شبلي النعماني ألفتها باللغة الأردية مراعاةً لحاجة الأوساط في شبه القارة الهندية ، ثم أتمها العلامة السيد سليمان الندوي باللغة نفسها . ومع أن كلا العلمين كانا يتمتعان بقدرة رفيعة على الكتابة والتأليف باللغة العربية ، وكان في وسعهما أن يصوغا هذا العمل بلغة عربية معاصرة سهلة وسليمة ، لكن أمر الله كان قدراً مقدوراً .

وبفضل المكانة العلمية والشهرة الواسعة التي كان يتمتع بها هذان العالمان ، سرعان ما ذاع صيت الكتاب على المستوى العالمي ، وإن كان علماء العرب ، إلى حد كبير ، بعيدين عن الاطلاع المباشر على محتوياته . غير أن المطالبة بتعريب الكتاب لم تتأخر ؛ بل بدأت في وقت مبكر من جانب عدد من علماء العرب وأدبائهم ، وظهرت محاولات فعلية لتحقيق هذا الغرض . وفي هذا السياق كتب العلامة السيد سليمان الندوي ، رحمه الله ، في إحدى مقالاته المنشورة ضمن " شذرات " في مجلة معارف الشهيرة :

" ومما يبعث على السرور أيضاً أن جماعة من أدباء مكة المكرمة قد عزموا على ترجمة كتابي دار المصنفين : " سيرة النبي " و " سيرة

* باحث في مكتبة خدابخش بته ولاية بيهار (الهند) .

عائشة " إلى اللغة العربية ، والشيخ رشدي الصالح ملحس ، محرر جريدة أم القرى ، هو المحرّك لهذه الفكرة . فإذا تمّت هذه الترجمات وطُبعت ونُشرت بالفعل ، فإن الأمل معقود بأن تُقدّم إلى العالم الإسلامي نماذج رفيعة من كلا الصنفين من مؤلفات الإسلام " . (شذرات سليمان ، ج ٣ ، ص ٣٦ ، ديسمبر ١٩٣٣ م) .

غير أن هذه المحاولة لم تُكتب لها فرصة الإنجاز في ذلك الوقت . ثم توالى بعد ذلك محاولات عدد من علماء العرب والفضلاء من خريجي دار العلوم ندوة العلماء لكناؤ لترجمة موسوعة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى العربية . وتذكر بعض الكتابات اسم الأستاذ عبد الوهاب عزام ، سفير مصر لدى باكستان ، الذي كانت تربطه صلة وثيقة بالعلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله ، وكان يرغب بنفسه في القيام بترجمة الكتاب . إلا أن هذا المشروع لم يتحقق كذلك .

ثم قام الأستاذ إسماعيل الندوي المدراسي المتخرج من الأزهر الشريف ونزيل ليبيا ، أثناء إقامته في مصر ، بترجمة مجلدين من سيرة النبي ، ويقال : إن مخطوط هذه الترجمة مخزون في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كما جاء في مجلة (معارف ، الصادرة في يونيو ١٩٩٧ م) ، غير أن هذه الترجمة لم تُنشر .

وبعد ذلك صدرت ترجمة جميع مجلدات سيرة النبي عن دار الترجمة بالقاهرة ، بأقلام عدد من العلماء المصريين ، إلا أن هذه الترجمة ، لأسباب متعددة - من بينها ضعف تمكّن المترجمين من اللغة الأردية - لم تحظَ بالقبول العلمي المنشود ، ولم تُسهم في التعريف بالكتاب تعريفاً لائقاً به في الأوساط العلمية العربية .

ثم تتابعت محاولات عدد من أهل العلم لترجمة الكتاب ، بل يُحتمل أن يكون بعضهم قد ترجم جزءاً منه بالفعل ، غير أن لكلّ أمر أجلاً ، وكلّ شيء مرهون بوقته ومربوط بقضاء الله وقدره ، وقد صدق

القائل : " كم ترك الأول للآخر " ؛ فقد قيض الله لهذه المهمة الجليلة عالماً متميزاً هو الأستاذ محمد رحمة الله الندوي (المولود ١٩٧٤م/ ١٣٩٥هـ) ، الذي يُعدّ من العلماء المشتغلين بالتأليف العربي ، وأعماله العلمية والتحقيقية تربو على نيف وثلاثين كتاباً باللغة العربية ، كما صدرت بقلمه تراجم عربية لبعض مؤلفات العلامة السيد سليمان الندوي ، من أهمها ترجمة كتاب السيدة عائشة رضي الله عنها وترجمة كتاب " خطبات مدراس " وطبعنا مراراً في دار القلم بدمشق قبل عقدين من الزمان .

وقد شرع الأستاذ محمد رحمة الله الندوي في هذا العمل بصورة منهجية ومنظمة ، وشارك في إنجازه عدد من زملائه من خريجي دار العلوم ندوة العلماء لكناؤ أمثال الدكتور آفتاب عالم الندوي ، والدكتور حسيب الرحمن الندوي ، والدكتور صاحب عالم الأعظمي الندوي ، والدكتور محمد علي الغوري ، حفظهم الله تعالى . وبفضل ما بذلوه جميعاً من عناية فائقة وجهد علمي متواصل ، لم تقتصر ثمرة المشروع على إنجاز ترجمة عربية لهذا السفر العلمي العظيم ، بل أخرج الكتاب أيضاً في طبعة رفيعة المستوى ، مزوّدة بحواشٍ وتعليقات علمية جامعة ، وصدر عن دار القلم بدمشق في حلة قشبية وصورة فنية وعلمية متميزة ، وقد تحقق ذلك كله بدعم خيري ومساعدة علمية مباركة من عدد من أصحاب الخير والولاء للإسلام من أهل قطر ، فجزاهم الله كل خير وأحسن مثوبتهم في الدارين .

وقد أسهم هذا الإصدار في التعريف بالكتاب سريعاً في الأوساط العلمية العربية ، وأصبح حاضراً في المشهد الثقافي العربي ، كما عُرض لأول مرة في معرض الدوحة الدولي للكتاب في دولة قطر ، ولاقى إقبالاً ملحوظاً ، وبيعت منه أعداد كبيرة ، مما يؤكد أهمية هذه الترجمة ودورها في إيصال هذا العمل الموسوعي في السيرة النبوية إلى القارئ العربي ، وإتاحة الانتفاع به على نطاق أوسع في العالم العربي والإسلامي .

(١) الأستاذ الدكتور عدنان زرزور إلى رحمة الله تعالى

قلم التحرير

انتقل إلى رحمة الله تعالى الأستاذ الدكتور عدنان زرزور ، وهو أكاديمي وباحث وعالم بالفرق والعقائد والتفسير وعلوم القرآن الكريم ، وذلك يوم الخميس في ٥ / ربيع الأول ١٤٤٨ هـ ، المصادف ١٩ / أغسطس ٢٠٢٦ م بالغاً من العمر ٨٧ عاماً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الدكتور عدنان زرزور من مواليد ١٣ / يناير عام ١٩٣٩ م من القرن المنصرم الميلادي في حي الميدان بدمشق بسوريا ، وكان والده محمد زرزور من كبار خطاطي دمشق ، ودرس الأستاذ عدنان الدراسة الابتدائية والثانوية في مدارس الجمعية الفراء بدمشق ، ثم درس الشريعة والحقوق في الجامعة السورية ، ونال منها شهادة الليسانس بدرجة ممتاز ، ثم واصل دراسته العليا في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٦٤ م ، وحصل منها على شهادة الماجستير ، في الشريعة الإسلامية ، وأعد رسالته القيمة حول متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ، كما نال شهادة الدكتوراه حول الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن ، وتمت مناقشته عام ١٩٦٩ م ، وكان في مقدمة المناقشين الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى ، ونال هذه الشهادة بمرتبة الشرف الأولى .

عين الأستاذ عدنان مدرساً في المدارس الابتدائية والثانوية في دمشق ، ثم أصبح معيداً في كلية الشريعة بجامعة دمشق ، ثم أستاذاً في نفس الكلية ، وقد أسند إليه تدريس علوم القرآن ، فوضع للطلاب كتاباً باسم علوم القرآن الكريم ، كما عين خطيباً ومحاضراً في عدد من مساجد دمشق ، فأدى هذه المسئولية بأمانة ودقة ، وقد ارتقى في هذه الجامعة على مناصب مختلفة ، ثم ذهب إلى جامعة الإمارات العربية المتحدة ، فعمل فيها أستاذاً عدة سنوات ، وفي مطلع عام ١٩٨٦ م انتقل إلى جامعة قطر ، فاختير أستاذاً بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية ، وبعد سنوات أصبح أستاذاً ورئيساً لقسم التفسير والحديث ، وقسم اللغة العربية ، ثم انتقل إلى البحرين كأستاذ عام ٢٠٠١ م ، وبقي هنا إلى وفاته .

ترك وراءه عدداً كبيراً من التلامذة والمستفيدين ، وكما خلف آثاراً علمية ، نذكر بعضاً منها على سبيل المثال : متشابه القرآن : دراسة موضوعية ، الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن ، البيان النبوي (مدخل ونصوص) ، مقالة في المعرفة : مقدمة لدراسة العقيدة الإسلامية ، جذور الفكر القومي والعلماني ، تداول الأيام لا نهاية ، شخصيات وأفكار ، السنة النبوية وعلومها بين أهل السنة والشيعية ، وله بحوث ومقالات علمية نشرت في المجلات المحكمة ، كما أخرج الأعمال الكاملة للشيخ المجاهد والمصلح المجدد مصطفى السباعي في أكثر من خمسة وعشرين مجلداً ، وله ابنان وأربع بنات .

ونحن إذ نعزي أسرة الشيخ عدنان زرزور ندعو الله تعالى أن يتغمده بواسع رحمته ، ويسبغ عليه شأبيب رضوانه ، ويلهم أهله وذويه الصبر والسلوان .

(٢) الزعيم المسلم عالم بديع الأعظمي إلى رحمة الله تعالى

استأثرت رحمة الله تعالى بالزعيم المسلم عالم بديع الأعظمي في ٨/ صفر ١٤٤٨هـ ، المصادف ٢٣/ يوليو ٢٠٢٦م ، بالغاً من العمر ٩٠/ عاماً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . كان الراحل الكريم ينتمي إلى قرية بندول بمديرية أعظم جراه ، بولاية أتراباديش ، حيث ولد في ١٦/ مارس عام ١٩٣٦م ، وكان والده الأستاذ بديع الزمان الأعظمي ، ونال شهادة الثانوية العامة من الكلية الإسلامية بمدينة غورخفور ، كما نال شهادة الدبلوم في الهندسة الكهربائية ، وقد انتخب مهندساً عام ١٩٦٧م ، في قسم الري للحكومة ، وكان معجباً منذ شبابه بالزعيم المسلم عبد الجليل الفريدي الذي كان يُعتبر قائداً سياسياً محنكاً في الهند ، وقد أنشأ المجلس الملي لخدمة الشعب الهندي ، وقد توفي عام ١٩٧٤م ، فكانت صلة الأستاذ عالم بديع الأعظمي به قوية ، وقد تعلم منه السياسة الهادفة ، وظل على هذا المنوال طول حياته .

انتخب الأستاذ عالم بديع الأعظمي خمس مرات عضو المجلس التشريعي لولاية أتراباديش ، وهي على ما يأتي : ١٩٩٦م ، ٢٠٠٢م ، ٢٠٠٧م ، ٢٠١٧م ، و ٢٠٢٢م ، فكان هذا الانتخاب دليلاً على شعبيته العامة ، وثقة الناس به ، وكان يعيش عيشة ساذجة ، لا كلفة فيها ، ولا زركشة ، وكان يقدم قضايا المسلمين في المجلس التشريعي في أحسن أسلوب ، مرة حينما كانت حكومة أتراباديش تتوخى أن تسن قانوناً حول إنشاد النشيد الوطني في المدارس والمؤسسات التعليمية قاطع هذا المشروع مقاطعة شديدة ، وقدم آراء قادة المسلمين ، وبين خطورة هذا المشروع الجائر ، كما نقل في خطبته في البرلمان قوله الإمام السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي : إن هذا النشيد له صميم علاقة بالشرك والوثنية ، فلا يجوز للمسلمين إنشاده في أي مرحلة من مراحل التعليم .

كان الأستاذ عالم بديع يحب العلماء والمشائخ الربانيين ، فكان يزورهم حيناً لآخر ، ويشجع الشباب على مواصلة النشاطات التعليمية والإصلاحية ، فكان محبوباً في جميع الأوساط الدينية والسياسية ، وقد زار ندوة العلماء مراراً وتكراراً ولقي علماءها ، وكان يفتخر بالانتماء إلى هذه المؤسسة التعليمية والإصلاحية .

ترك وراءه أسرة حافلة بالبنين ، وله ستة أبناء : شهزاد عالم ، شاداب عالم ، سراج عالم ، انتخاب عالم ، دانش عالم ، مستجاب عالم ، وقد توفيت زوجته قبل سنتين ، وقد صلى عليه الأستاذ أسامة الرشادي الندوي من جامعة الرشاد في جمع حاشد ، وتم دفنه في المقبرة العامة خلف جامعة الرشاد بأعظم جراه .

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر له زلاته ، وأسكنه فسيح جناته ، وألهم أهله وذويه الصبر الجميل .

(٣) الشاعر آفتاب أثر التاندوي في ذمة الله تعالى

انتقل إلى رحمة الله تعالى الشاعر آفتاب أثر التاندوي يوم السبت

٢٤/٢/١٤٤٨ هـ ، المصادف ٨ / أغسطس ٢٠٢٦ م بالغاً من العمر حوالي ٨٠ عاماً ،
فإننا لله وإنا إليه راجعون .

كان الشاعر آفتاب أثر التاندوي ينتمي إلى مدينة تانده بولاية أترابرايش (الهند) ، انتقل والده الحاج شفيق أحمد ، إلى مدينة لكانا ، وكان يسكن في أحد أحياء لكانا ، حيث ولد الأستاذ آفتاب أثر التاندوي في ١٥ / يونيو عام ١٩٤٧ م ، ودرس الأستاذ آفتاب في كلية أمين آباد ، ونال شهادة الثانوية منها ، وواصل دراسته حتى حصل على شهادة بكالوريوس العلوم في الفيزياء (B.S.C) عام ١٩٦٤ م ، وحصل على بكالوريوس صناعة النسيج من ممبائي عام ١٩٦٩ م ، واشتغل بعد ذلك بأعمال والده التجارية التي كان يباشرها ، وكان بجانب أعماله التجارية يحمل ذوق العلم والأدب ، فكان يقرض الأبيات الأوردية ، ويحضر اجتماعات الشعراء ، ويلقي فيها أبياته بقوة وحماس ، وكانت له عضوية خاصة في مؤسسة محمد علي جوهر ، التي يرأسها الشيخ محمد وصي الصديقي ، ويحضر المجالس الأدبية التي تعقدتها هذه المؤسسة ، كما كان له اعتناء بالغ بعقد اجتماعات السيرة النبوية على صاحبها ألف تحية وسلام في مدينة لكانا مع صديقه المحامي إيم . إ . حسيب ، فكان يقرض الأبيات في المديح النبوي ، ويبدي فيها حبه وإعجابه بالنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكانت له صلة قوية بعلماء ندوة العلماء الذين كان يزورهم ويستفيد منهم . يُعرف الأستاذ آفتاب أثر بدماثة خلقه ، ولين عريكته ، وحسن تعامله مع الناس ، وكان يحمل في جنبه قلباً متألماً ، وشعوراً مرهفاً ، فكان يشارك هموم الناس وآلامهم ، وقد واطب على سنة الاعتكاف في مسجده منذ أربعين عاماً ، رزقه الله ثمانية أولاد ، بارك الله في حياتهم . ونحن إذ نعزي أسرة الشاعر آفتاب أثر ندعو الله تعالى أن يرحمه رحمة واسعة ويغفر له زلاته ، ويسكنه فسيح جناته .

(٤) والدته الأخ العزيز أحمد ميان في ذمة الله تعالى

انتقلت إلى رحمة الله تعالى والدته الأخ العزيز أحمد ميان الموظف في قسم المال بدار العلوم لندوة العلماء ، السيدة ذاكرة خاتون البالغة من العمر ٨٦ عاماً ، وذلك في ٤ / ربيع الأول ١٤٤٨ هـ ، المصادف ١٨ / أغسطس ٢٠٢٦ م ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . كانت الراحلة الكريمة زوج الأستاذ أنوار الحسن الندوي الذي توفي عام ١٩٧٠ م ، وتم دفنه في مقبرة دارة السيد علم الله الحسن ، وكان الأستاذ أنوار الحسن الندوي مدرس اللغة الإنجليزية بدار العلوم لندوة العلماء والمستملي الخاص للشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله تعالى . عاشت الراحلة عيشة القناعة والرضا بقضاء الله تعالى ، وكانت متحلية بالصفات الحميدة والشمائل الكريمة ، تركت وراءها ولدها الوحيد الأخ أحمد ميان وأربع بنات ، كلهن متزوجات . وقد صلى عليها في رحاب ندوة العلماء مع جم غفير من الناس الشيخ السيد بلال عبد الحي الحسيني الندوي رئيس ندوة العلماء ، رحمها الله رحمة واسعة وغفر لها زلاتها .

إصدارات حديثة

دروس أخلاقية للشباب



إعداد وترتيب
الأستاذ/أبو بكر الصديق الفيضي الندوي
(كيرلا-الهند)

R.N.I. No. (U.P.) ARA/2000/02341
Postal Regd. No. SSP/ LW-NP/64/2024 To 2026
Published on: 3rd of Every Month
Posted at R.M.S. Charbagh Lucknow-04



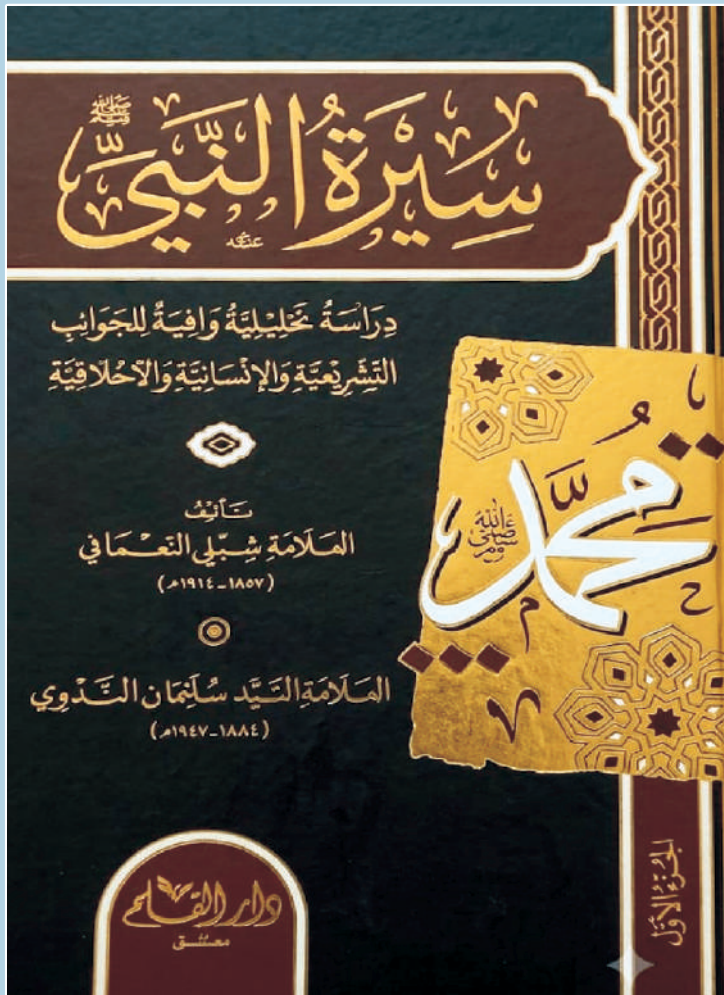
Dispatch Date: 5,6,7
ISSN 2347-2456
Per Copy. Rs. 40/-
Annual Subs. Rs. 400/-

Monthly

AL-BAAS-EL-ISLAMI

Vol. No. 72 Issue. No. 10, October 2026

إصدارات حديثة



Designed by Hamid, Mob:9889654027, 9918687777, E-mail:hrhamid1962@gmail.com

Printed & Published by MOHAMMAD TAHA ATHAR on behalf of Majlis-e-Sahafat-wa-Nashriyat
at Azad Printing Press, Nazirabad Lucknow. U.P.
Editor: SAEED -AL - AZAMI - AL- NADWI